

معرفة تأويل المتشابه

د. عبدالله أبو السعود بدر
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة مؤتة

ملخص

أوضحت في هذا الكتاب معنى التشابه في لسان العرب، وفي استخدام القرآن الكريم، والوجه الحقيقي في المتشابه، والتقابل بين الأحكام والتشابه في الشيء الواحد، والعامل الفكري المشترك الذي يربط في خيط واحد بين الآيات التي تصف القرآن كله بأنه مُحكم، والآيات التي تصفه كله بأنه متشابه، وكذلك الآية التي تقرّر أن منه مُحكمًا ومنه متشابهًا. كما حاولت أن أتوصل إلى إجابة عن السؤال التالي: هل في القرآن آيات وضعها الله أصلاً متشابهة في مقابل آيات آخر وضعها أصلاً محكمة؟ أم أن الأحكام هو الأصل في وضع القرآن كله، والتشابه عارض خادع، متوهم أو مفتعل؟ كذلك ناقشت في هذا البحث الخلاف بين من يرون أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، ومن يرون أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وتحدثت عن العوامل التي تؤثر في إثارة التشابه وتكوينه وتوجيهه وجهات معينة وأخيراً القيت الضوء على مثيري التشابه. وأهدافهم الخبيثة التي يبغيونها من وراء هذه الإثارة. وأمطت القناع الزائف الذي يخفون وراءه وجوههم الحقيقية الشائنة، وكشفت عن مكن الخطة في إثارتهم لهذه المشكلة.

Abstract

This paper clarifies the following issues:

(1) the meaning of "ambiguity" in Arabic, (2) the use of "ambiguity" in the Holy Qura'an, (3) the oppositeness between "ambiguity" and literality, and (4) the intellectual factors relating three types of versis in the Qura'an: verses asserting the ambiguity of the Qura'anic text, verses declaring its literality, and verses stating that the Qura'an is partly ambiguoussand partly literal. The paper also attempts to answer the following questions: Does the Qura'an include inherently ambiguous and inherently literal verses? Is "Literality" in the Qura'an the norm while "ambiguity" the exception?

The paper further discusses the dispute between those who believe that the Qura'anic ambiguity can be disambiguated only by God, and those who say that sophisticated scholars may also perform this. Finally, the paper discusses the sources of "ambiguity" and the attitudes of those who emphasize this issue in the Qura'anic studies. It also clarifies tne malicious intent involved in these attitudes.

مقدمة

حُثَّ الله سبحانه على التفكير في كتابه الكريم، ودعا الى دراسته، وفتح باب التدبر والاجتهاد في آياته وسوره، فقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. ^(١) واشتد خطابه - سبحانه - على من لا يُعْمِلُ عقله وقلبه في فهم القرآن وتدبره، فقال جلَّ وعلا ﴿ أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾. ^(٢) ومن العقائد الاسلامية الراسخة أنَّ القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، ولا شك أن هذه الصلاحية تستوجب الاجتهاد المتجدد في فهم نصوصه وتكييفها لمعالجة القضايا الانسانية المتغيرة دوماً والمتطورة تبعاً لاختلاف العصر وعلومه وقيمه وأهدافه وغير ذلك. وهذا يعني أنَّ باب الاجتهاد في فهم النص وتفسيره ما زال مفتوحاً، وأن أي تفكير في إغلاقه أو في وضع عراقيل التزمت الجاهل والتقليد الجامد أمامه يعد عملاً عدائياً للإسلام.

ولقد أقدمت على هذا البحث محاولة لفهم مشكلة التشابه في القرآن، وهي مشكلة تفسيرية قديمة، يرجع العهد بها الى أيام صدر الإسلام الأولى، فقد ورد في الأخبار الصحيحة المتواترة أنَّ رجلاً يُدعى «صبغاً» كان في عهد عمر بن الخطاب يدور يسأل الناس عن متشابه القرآن، فمنعه عمر من ذلك بالقوة وعاقبه. ^(٣) على أنَّ هذا التشدد لم يقو على إغلاق باب هذه المشكلة التي كانت القوى العدائية للإسلام تعمل بكل ما أوتيت من جبروت على إضرار نارها، وعلى بقاء هذه النار مشتعلة متأججة فلا زال الاسلام منذ ظهوره - وحتى اليوم - يتعرض لكيد الكائدين ومؤمرات الحاقدين عليه من أعدائه، الظاهرين والمقنعين الذين يرومون هدمه والقضاء عليه، ولكن هيهات،

(١) سورة ص/٢٩.

(٢) سورة محمد/٢٤.

(٣) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية ١٤/٤ - ١٥. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن أبي بكر الكمال بن محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان الحضيري السيوطي الشافعي (٨٤٩-١٩٩١هـ = ١٤٤٥-١٥٠٥م)، الاتقان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٨/٣. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : السيوطي، الاتقان.

قال تعالى : ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾. (٤)
ويقصد بمشابه القرآن تلك الآيات التي يتوهم تعارض ظاهر معانيها وأفكارها مع
ظاهر معاني وأفكار آيات أخرى في القرآن الكريم.

وقد أوضحت في هذا البحث معنى التشابه في لسان العرب، وفي استخدام القرآن
الكريم، والوجه الحقيقي في التشابه، والتقابل بين الإحكام والتشابه في الشيء الواحد،
والعامل الفكري المشترك الذي يربط في خيط واحد بين الآيات التي تصف القرآن كله
بأنه محكم، والآيات التي تصفه كله بأنه متشابه، وكذلك الآية التي تقرر أن منه محكماً
ومنه متشابهاً كما حاولت أن أتوصل الى إجابة عن السؤال التالي : هل في القرآن آيات
وضعها الله أصلاً متشابهة في مقابل آيات آخر وضعها أصلاً محكمة؟ أم أن الإحكام هو
الأصل في وضع القرآن كله، والتشابه عارض خادع، متوهم أو مفتعل؟ كذلك ناقشت
في هذا البحث الخلاف بين من يرون أن التشابه لا يعلم تأويله إلا الله، ومن يرون أن
الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وتحدثت عن العوامل التي تؤثر في إثارة التشابه
وتكوينه وتوجيهه وجهات معينة. وأخيراً ألقى الضوء على مثيري التشابه، وأهدافهم
الخبئية التي ييغونها من وراء هذه الإثارة، وأمطت القناع الزائف الذي يخفون وراءه
وجوههم الحقيقية الشائنة، وكشفت عن مكنن الخطر في إثارتهم لهذه المشكلة. وعلى
الله قصد السبيل.

معنى التشابه في لسان العرب

التشابه تفاعل من المادة اللغوية «شبه»، وفي لسان العرب أن الشَّبَّ والشَّبَّة
والشَّيْبَة : المثل، وأشَبَّ الشيء : مَآثَلَهُ، وَأَشَبَّهُتُ فُلَاناً وَشَابَهْتُهُ، وَأَشَبَّتهُ عَلَيَّ، وَتَشَابَهَ
الشَّيْئَانِ وَأَشَبَّتَاهُ : أَشَبَّهَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَاحِبَهُ. والتشبيه : التمثيل. والشَّيْبَةُ :
الالتباس. وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ وَمُشَبَّهَةٌ : مُشْكِلَةٌ، يُشَبِّهُ بَعْضُهَا بَعْضاً. وَشَبَّ عَلَيْهِ : خَلَطَ
عليه الأمر حتى اشتبه بغيره. وَشَبَّ الشيء : إذا أشكله، وَشَبَّهَ إذا ساوى بين شيء
وشيء. واشتبه الأمر إذا اختلط. (٥)

(٤) سورة الصف/٨.

(٥) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن أبي الحسن علي بن أحمد بن منظور الإفريقي المصري
الأنصاري الحزرجي (٦٣٠ - ٧١١هـ = ١٢٣٢ - ١٣١١م)، لسان العرب. تحقيق : عبدالله علي الكبير، ومحمد
أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي. دار المعارف بمصر ١٩٧٩م. مادة (شبه) وسيشار الى هذا المصدر عند
وروده فيما بعد هكذا : ابن منظور، لسان العرب.

ويتضح من ذلك أن التشابه يفيد معاني عدة، منها : التماثل، والتساوي، والالتباس، والخلط والإشكال.

ومن المملكن تقسيم هذه المعاني الى قسمين متميزين : يضم القسم الأول معاني التماثل والتساوي (Resemblance)، ويضم القسم الآخر معاني الالتباس، والخلط، والإشكال (ambiguity). ولكن على الرغم من إمكانية التمييز بين هاتين المجموعتين من المعاني، وملاحظة الاختلاف الواضح بينهما، إلا أنها مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بعلاقة سببية تلازمية قوية، تتمثل في أن معاني المجموعة الأولى تعد ممهدة ومقدمة طبيعية لمعاني المجموعة الثانية، وذلك لأنه حين تتماثل الأشياء وتتساوى في عناصرها، تضعف الفروق المميزة بينها، وتبهت، وتتلاشى أو تكاد، ومن هنا يلتبس بعضها ببعض ويختلط، ويحدث الإشكال.

للتشابه إذن معنيان : معنى التماثل، ومعنى الالتباس، أو - بعبارة أخرى - لمعنى التشابه درجتان متتاليتان : تشابه بدرجة خفيفة يعطي صورة تماثل، وتشابه بدرجة شديدة يعطي صورة الالتباس والخلط والإشكال. والعلاقة بين هاتين الدرجتين علاقة شرطية وجوبية، فإذا دق التشابه بين شيئين خفيت الملامح الخاصة بكل منهما التي تميزه عن الآخر، فيحدث الخلط بينهما والالتباس والإشكال.

معنى التشابه في الاستخدام القرآني

ومن الفحص التفسيري للآيات الثماني^(٦) التي وردت فيها تشكيلات صرفية متعددة للفظ التشابه، يتأكد أن القرآن الكريم استخدم هذا اللفظ أحياناً بالمعنى الأول الخفيف الذي يفيد التماثل، وأحياناً أخرى بالمعنى الثاني الشديد الذي يفيد الالتباس.

فمثلاً في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٧) اسْتُعْمِلَ هنا لفظ التشابه بالمعنى الأول الذي يفيد التماثل، فلقد قالت النصارى مقولة

(٦) هي على الترتيب : سورة البقرة/٢٥، ٧٠، ١١٨، سورة آل عمران/٧، سورة النساء/١٥٧، سورة الأنعام/٩٩، ١٤١، سورة الرعد/١٦.

(٧) سورة البقرة/١١٨.

اليهود من قبلهم، وذلك لأن قلوبهم متشابهة، أي متماثلة في الكفر والضلال وعندا الرسل ومُشادتهم.

أما في قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مِثْلَهَا﴾. (٨) فقد ذكرت الآية أَنَّ أهل الجنة - عندما يُرْزَقُونَ بثمرة من ثمرها - يقولون : هذا الثمر هو الذي رزقناه قبل ذلك. ومعنى هذا أنهم يَدْعُونَ في قولهم أَنَّ الثمر الذي يُرْزَقُونَ به في الجنة هو نفسه الثمر الذي كانوا قد رُزِقُوا به من قبل، سواء كان قصدهم أنهم رُزِقُوا به من قبل في حياتهم الدنيا على الأرض، أم كان قصدهم أنهم سَبَقَ لهم أن رُزِقُوا به أثناء إقامتهم في الجنة - على اختلاف في تفسير قوله تعالى : ﴿من قبل﴾. (٩)

ولقد أوضحت الآية أَنَّ السبب الذي دفعهم الى هذا القول هو أنهم أتوا بهذا الرزق في الجنة متشابهاً، لذا خلط عليهم. فالآية تؤكد إذن أَنَّ ثمر الجنة يختلف عن الثمر الذي كانوا قد رزقوا به من قبل سواء في الدنيا أو في الجنة، ولقد ذكر المفسرون عدة أوجه لهذا الاختلاف : فإن ثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا من حيث كونه أطيب

(٨) سورة البقرة/٢٥.

(٩) ذهب بعض المفسرين - ومنهم ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة، وابن زيد، والطبري - إلى أَنَّ المقصود بالرزق الذي رزقوه من قبل هو رزق الدنيا. بينما ذهب مفسرون آخرون - ومنهم أبو عبيدة ويحيى بن أبي كثير - إلى أَنَّ المقصود بهذا الرزق هو رزق الجنة، اعتماداً على بعض الآثار التي تذكر أَنَّ ثمر الجنة متجدد متوال دوماً لا ينفذ ولا ينقطع، فكلما قطف واحد من أهل الجنة ثمرة من ثمرها نبتت مكانها في الحال ثمرة أخرى بدلها. انظر في ذلك : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي الطبري (٢٢٥ - ٣١٠هـ)، جامعة البيان عن تأويل آي القرآن، الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م، ١٧٠/١ - ١٧٢. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الطبري، جامعة البيان. ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد بن الجوزي (٥١٠ - ٥٩٧هـ)، زاد المسير في علم التفسير، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، المكتب الاسلامي، بيروت ٥٢/١. ويشير لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : ابن الجوزي، زاد المسير. ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي (٧٠٠ - ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٠٩/١٠ - ١١٠. ويشير لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن أبي بكر الكمال بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الخضيري السيوطي الشافعي (٨٤٩ - ٩١١هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)، الدر المنثور في التفسير المأثور، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ٩٦/١ ويشير لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : السيوطي، الدر المنثور.

طعماً، أو أنه خيار كله لا رذل فيه، أو غير ذلك.^(١٠) وأيضاً فقد يكون ثمر الجنة مختلفاً بعضه عن بعض في الصنف الواحد، فالله أعلم، وهو القادر على كل شيء وهو المصور البديع، ولقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١١)، وقال رسول الله (ﷺ): «فيها ما لأعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١٢). وهذا يعني وجود فوارق بين ثمر الجنة وثمر الدنيا، أو بين ثمر الجنة بعضه وبعض، كما يؤكد وجود الاختلاف بينها. ولكن بالرغم من ذلك لم يستطع أهل الجنة اكتشاف هذه الفوارق والاختلافات، بل أنها اشتبهت عليهم. وواضح أن الآية استخدمت لفظ التشابه هنا بالمعنى الثاني الثقيل وهو معنى الالتباس، ذلك أن التماثل الشديد بينها دق حتى خفيت عنهم الفروق الأكيدة الموجودة فعلاً بينها - أو كادت - فاختلطت عليهم وألتبس أمرها. وتعزز كلمة «كُلِّهَا» فكرة دِقَّة التشابه وشدة التي أوقعتهم في اللبس، لأنه على الرغم من تكرار عملية ورود رزق الجنة عليهم ثمرة ثمرة، إلا أنهم - لشدة التماثل ودقته - لم يفرقوا بين هذه الثمار وبين الثمار التي كانوا قد رزقوا بها قبلاً، وظنوها جميعاً ثماراً واحدة غير مختلفة، بل جعلتهم يهتفون بهذا القول في كل مرة يَرُدُّ عليهم فيها الرزق بثمرة من ثمار الجنة، سواء أكان هتافهم بهذا القول من باب الإخبار والتثبيت والإقرار، أم من باب التعجب والدهشة والاندهاش أمام قدرة الله العظيمة وبديع صنعه، أم من باب الاستفهام... أم غير ذلك، فالهمهم أنهم وقعوا في التشابه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١٣).

(١٠) الطبري، جامع البيان ١٧٢/١ - ١٧٤.

(١١) سورة السجدة/١٧.

(١٢) الإمام البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري الجمفي (١٩٤ - ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، كتاب بدء الخلق ٢٨٧/٥. ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: البخاري، صحيحه. وقد روى هذا الحديث أيضاً كل من مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان وكتاب الجنة) والترمذي (كتاب الجنة) (وكتاب التفسير) وابن ماجه في (الزهد)، والدارمي في (الرقاق) وأحمد في مسنده ٣١٣/٢، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٩٥، ٥٠٦، ٣٣٤/٥.

(١٣) سورة الأنعام/٩٩.

وقوله سبحانه : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾. ^(١٤) ففي هاتين الآيتين يوضح الله سبحانه وتعالى أنَّ الزيتون والرمان يكون متشابهاً وفي الوقت نفسه يكون غير متشابه، والمقصود أنه يكون متماثلاً بصفة عامة للنظر العادي، ولكن بعد الفحص والتدقيق والاختبار يتضح أنه غير متماثل، بل هناك فروق واختلافات.

وهكذا، استخدم القرآن الكريم لفظ التشابه أحياناً بمعنى التماثل، وأحياناً أخرى بمعنى الالتباس، ولما كان من شأن المتشابهين عجز الانسان عن التمييز بينهما سمي كل ما لا يهتدي الانسان إليه متشابهاً إطلاقاً لاسم السبب الذي هو التشابه على المسبب الذي هو عدم فهم المعنى، ونظيره المشكل أي دخل في شكل غيره، وذلك يرجع الى العلاقة المنطقية بين المعنيين اللذين ذكرناهما للتشابه وهما : المماثلة والالتباس، وهي علاقة وجوبية شرطية، بمعنى أنه إذا دَقَّ التشابه بين شيئين - هما مختلفان في الأصل نتج عن ذلك خفاء للملامح الخاصة التي تميز أحدهما عن الآخر، ومن ثمَّ يدخل الشيء الذي خفيت ملامحه الخاصة في شكل قرينه الآخر، فيصير بذلك مشكلاً بعد أن دخل - في نظر الناظر - في شكل آخر يختلف عن شكله الأصلي وهذا هو السبب الذي يجعل من التشابه - الذي اختلط بغيره - مشكلاً، لذا يحتاج الى إبراز ملامحه الحقيقية ورده الى أصله المحكم، حتى تزول عنه صفة الالتباس، وهكذا يمكن دفع الأشكال عنه.

الوجه الحقيقي في التشابه

وهنا نصل الى نقطة هامة : وهي حقيقة الشيء الذي يقع عليه التشابه بالمعنى الثاني وهو معنى الالتباس : إنَّ هذا الشيء له حقيقة أصلية تحتوي على العناصر الدقيقة المميزة له، وهي الأصل الوضعي الأول له، والتي تفرقه عن غيره من الأشياء التي يمكن أن تلتبس به في حالة ما إذا كانت عناصر هذه الأشياء شديدة المماثلة لعناصره.

وَيُفْهَمُ من هذا أنَّ التشابه - بمعنى الالتباس - لا يعني مطابقة الواقع، فليس معنى أنَّ الشَّيْئَيْنِ مشتبهان أنَّ أحدهما تحوَّل فصار هو الآخر، أو أن أحدهما زال وبقي الآخر، فهذا محض وهم : لأنَّ الشَّيْئَيْنِ موجودان بالفعل، والفروق المميزة لكل منهما موجودة

بالتأكيد، وكل ما في الأمر شِدَّةُ التماثل بين عناصرهما ودقتها وخفائها، لاشتراكهما في محمول واحد ذاتي أو عرضي، أو لاشتراك المحمولات في موضوع واحد، كما يبدو في قطرة الزيت مثلاً حين تشبه جذل الغضا لاتحادهما في المادية والنباتية والاشتعال، فتصل نسبة التشابه بينهما الى حد الاتحاد (Union) وهنا يحدث الخلط والالتباس.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة وذلك في حديثه عن التشابه الذي وقع فيه النصراني في قضية صَلْبِ عيسى عليه السلام وقتله - بزعمهم - ويَنَّ أن هذا الزعم منهم مبني على التشابه بمعنى الالتباس، وقد قرر المفسرون أن الذي صلبه اليهود وقتلوه ليس هو عيسى عليه السلام، ولكنه كان شخصاً آخر ألقى الله شَبَهَ عيسى عليه، فصلبه اليهود وقتلوه، وهم يظنون - خطأ - أنهم فعلوا ذلك بعيسى، وما قتلوه يقيناً، إلا أن شِدَّةَ التماثل بين عيسى والرجل الذي صلبوه وقتلوه كانت شديدة لدرجة الاتحاد، فأوقعتهم في اللبس والخلط والخطأ.

قال تعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. (١٥)

ويمكن أن نتلمس - في الأناجيل الأربعة المعترف بها لدى الكنيسة - ما يؤكد وقوع النصراني في هذا التشابه، والأسباب التي أوقعتهم فيه، إذ أن الملابس التي أحاطت بعملية القبض على عيسى التي ذكرتها هذه الأناجيل، تدل - بما لا يدع مجالاً للشك - على أن هناك غموضاً في تحديد هوية الشخص الذي قبض عليه اليهود، وأنه لا توجد أدلة واضحة حاسمة تؤكد أنه كان هو عيسى عليه السلام، وأنه لا يوجد شهود تعرفوا عليه واعترفوا بأنه هو فعلاً.

لقد تم القبض على عيسى - حسب زعمهم - ليلاً، ويدل على ذلك دليان : الأول : أن عيسى أمر تلاميذه في ذلك الوقت أن «يسهروا» (١٦) معه، وبالطبع فإن السهر لا يكون نهاراً، بل يكون ليلاً والآخر : أن (يهوذا الأسخريوطي) أخذ «الجند

(١٥) سورة النساء/١٥٧-١٥٨.

(١٦) انجيل متى ٢٦/٣٨، ٤٠، ٤١، انجيل مرقس ١٤/٣٤، ٣٧، ٣٨.

وخداما من عند رؤساء الكهنة والفريسيين^(١٧) وجاء الى هناك بمشاعل ومصابيح^(١٨) واستخدام المشاعل والمصابيح لا يكون نهاراً، بل لا بد أن يكون ليلاً.

ولم يكن هؤلاء الجنود يعرفون وجه عيسى ولا شكله، ويدل على ذلك دليلان : الأول : انهم استخدموا يهودا ليدلهم عليه، و«أعطاهم علامة قائلاً : الذي أقبله هو هو، أمسكوه»^(١٩). والآخر : أن عيسى نفسه سألهم حين قدموا للقبض عليه : مَنْ تطلبون؟ فلم يقولوا : نطلبك أنت أو إنك مَنْ نطلب، بل قالوا له : يسوع الناصري^(٢٠) مما يدل على أنهم لم يعرفوه من قبل، ولم يتعرفوا عليه وهم يكلمونه. بل إن رؤساء اليهود وحكامهم - آنذاك - لم يكونوا أيضاً يعرفون وجهه ولا شكله، والدليل على ذلك أن أمير الربع (هيرودس أنطيباس) الملقب بـ «الثعلب» لما رأى يسوع فرح جداً لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة^(٢١)، فهيرودس إذن لم يكن قد رأى عيسى من قبل إلا بعد القبض عليه.

وكان المكان الذي تم فيه القبض ضيعة^(٢٢) أو بستاناً^(٢٣) في جبل الزيتون^(٢٤). وهذا الأمر له دلالة. وكان عيسى عندما دخل هذا المكان قد أمر تلاميذه أن يسهروا معه^(٢٥)، وكأنه كان يريد منهم أن يبقوا مستيقظين متنبهين ليتربوا ما سيحدث، وليشهدوا المعجزة الإلهية التاريخية العظمى في لحظة حاسمة ستظل حديث الأجيال

(١٧) الفريسيون : كلمة مشتقة من الآرامية، وتعني المنشقين. وهم الذين انفصلوا عن الكتبة البابليين الذين اخترعوا الشريعة اليهودية. وكان انفصالهم عنهم لأهداف سياسية خاصة.

(١٨) انجيل يوحنا ٣/١٨.

(١٩) انجيل متى ٤٨/٢٦، انجيل مرقس ١٤/٤٤.

(٢٠) انجيل يوحنا ٤/١٨ - ٥.

(٢١) انجيل لوقا ٢٣/٨.

(٢٢) انجيل متى ٢٦/٣٦، انجيل مرقس ١٤/٣٢.

(٢٣) انجيل يوحنا ١٨/١، ١٦.

(٢٤) انجيل لوقا ٢٢/٣٩.

(٢٥) انظر هـ رقم ١٦.

ومحوراً لتفكير الانسانية فيما حدث فيها، وقد كان عيسى يعلم يقيناً أنَّ القبض عليه سيتم الليلة^(٢٦) وقد ظهر له ملاك من السماء يُقَوِّيه^(٢٧) كما طلب عيسى أيضاً من تلاميذه أن يُصَلُّوا^(٢٨) ولم يتعد عيسى عن تلاميذه، بل تقدم قريباً منهم^(٢٩) نحو رمية حجر^(٣٠) - وبدأ يصلي^(٣١) جثا على ركبتيه^(٣٢)، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ^(٣٣)، على الأرض، واستغرق في صلاة عميقة^(٣٥)، ومناجاة لله، لدرجة أن عرقه صار يتقاطر على الأرض كقطرات الدم^(٣٦) ولكنه بعد أن أنهى جزءاً من صلاته عاد إليهم فلم يجدهم مستيقظين متبهرين مترقنين - كما أمرهم - ولم يجدهم أيضاً يصلون - كما طلب منهم - بل وجدهم قد ناموا^(٣٧) وعاتبهم^(٣٨) وعاد إلى صلاته ثانية^(٣٩)، وبعد أن أنهى جزءاً منها عاد إليهم مرة أخرى، فوجدهم أيضاً ما زالوا نائمين، بل كانوا مستغرقين في سبات عميق وكانت أعينهم ثقيلة^(٤٠) لدرجة أنهم لم يعلموا بماذا يجيبونه^(٤١) فلم يكلمهم، وتركهم وعاد إلى

(٢٦) انجيل متى ٢٦/٤٥، انجيل مرقس ١٤/٣٥، انجيل يوحنا ١٨/٤.

(٢٧) انجيل لوقا ٢٣/٤٣.

(٢٨) انجيل متى ٢٦/٤١، انجيل مرقس ١٤/٣٨، انجيل لوقا ٢٢/٤٠.

(٢٩) انجيل متى ٢٦/٣٩، انجيل مرقس ١٤/٣٥.

(٣٠) انجيل لوقا ٢٢/٤١.

(٣١) انجيل متى ٢٦/٣٩، انجيل مرقس ١٤/٣٥، انجيل لوقا ٢٢/٤١.

(٣٢) انجيل لوقا ٢٢/٤١.

(٣٣) انجيل متى ٢٦/٣٩.

(٣٤) انجيل مرقس ١٤/٣٥.

(٣٥) انجيل لوقا ٢٢/٤٤.

(٣٦) انجيل لوقا ٢٢/٤٤.

(٣٧) انجيل متى ٢٦/٤٠، انجيل مرقس ١٤/٣٧، انجيل لوقا ٢٢/٤٥.

(٣٨) انجيل متى ٢٦/٤٠-٤١، انجيل مرقس ١٤/٣٧-٣٨، انجيل لوقا ٢٢/٤٦.

(٣٩) انجيل متى ٢٦/٤٢، انجيل مرقس ١٤/٣٩.

(٤٠) انجيل متى ٢٦/٤٣، انجيل مرقس ١٤/٤٠.

(٤١) انجيل مرقس ١٤/٤٠.

الصلاة مرة ثالثة^(٤٢) ثم أنهى صلاته وعاد إليهم وقال لهم : «ناموا الآن واستريحوا، هو ذا الساعة قد اقتربت»^(٤٣)، أو قال : «ناموا الآن واستريحوا، يكفي، قد أتت الساعة»^(٤٤).

وللتوّ، بينما هو يتكلم اقتحم الجنود المكان،^(٤٥) وَهَبَ التلاميذ من نومهم، ولكن ماذا فعلوا؟ تركوه وفرّوا كُلُّهم هاربين^(٤٦).

وتقدم يهوذا من عيسى وَقَبَّلَهُ لكي يعرفه الجنود ويقبضوا عليه.

هذه اللحظة الحاسمة، لحظة القبلة الخائنة، هي لحظة إلقاء شبه عيسى على يهوذا أو على غيره، ولم يشهد حقيقة ما حدث في هذه اللحظة ولم يتيقنهما سوى إثنان فقط هما : عيسى، وَمَنْ الْقِيَّ عليه شبهه سواء كان يهوذا أو غيره.

وقد ذكر متى في إنجيله أنَّ يهوذا - في صباح اليوم التالي مباشرة لليلة القبض - توجه إلى الهيكل واعترف اعترافاً صريحاً أمام رؤساء الكهنة أنه قد أخطأ في الشخص الذي سَلَّمَهُ لهم، وأن هذا الشخص بريء، ثم مضى وخنق نفسه^(٤٧) ويبدو أنَّ هذا الاعتراف كان السبب الحقيقي الذي جعل أصحاب الأناجيل الثلاثة الأخرى لا يذكرونه قط، ولا يشيرون إليه من قريب ولا من بعيد، وأغفلوه تماماً بالرغم من أهميته البالغة، ولو على سبيل تأكيد براءة عيسى من التهمة التي ألصقتها به اليهود، وكشف مؤامرة يهوذا ضده، والمصير المحتوم الذي آل إليه جرّاء ذلك. ولو صَحَّت رواية متى لكان الذي أَلْقِيَّ عليه شَبَهَ عيسى شخصاً آخر غير يهوذا.

أما تلاميذ عيسى، فقد فرّوا هاربين، لذا لم يكن حضورهم للحظة القبض حضوراً تاماً، ولا يخفى على أي ذي عقل وإدراك سليم أنَّ من كان مستغرقاً في سبات عميق لم يفقه منه نداء ولا إيقاظ متكرر، ثم يهب من نومه فجأة مذعوراً على خطر داهم

(٤٢) انجيل متى ٢٦/٤٤.

(٤٣) انجيل متى ٢٦/٤٥، وانظر : انجيل مرقس ١٤/٤١.

(٤٤) انجيل مرقس ١٤/٤١.

(٤٥) انجيل متى ٢٦/٤٧، انجيل مرقس ١٤/٤٣، انجيل لوقا ٢٢/٤٧.

(٤٦) انجيل متى ٢٦/٥٦، انجيل مرقس ١٤/٥٠.

(٤٧) انجيل متى ٢٧/٣-٥.

يوشك يهلكه ويودي بحياته، فيفر هارباً ويطلق ساقيه للرياح - لا يمكن لهذا الشخص أبداً. أن تتوفر لديه فرصة جيدة للرؤية المتأنية الهادئة المدققة الواعية لتفاصيل الحدث، وكذلك لا يمكن أن يكون متأكداً - تأكيداً تاماً يوثق به - من حقيقة ما حدث. ولذا يبدو أن هذا السر في أننا لا نجد في أي إنجيل من الأناجيل الأربعة تلميذاً واحداً فقط من هؤلاء التلاميذ يشهد شهادة عيان - يُطَمِّنُ إليها - ويعترف بأن الذي قبض عليه اليهود هو عيسى فعلاً.

وهناك عوامل أخرى زادت من هذا الاشتباه: منها عامل المكان، فقد كان بستاناً، ولا شك أن البستان يحتوي على العديد من الأشجار المثمرة، التي ترتفع أغصانها وتلتف وتتشابك وتغطي بأوراقها مساحات من المكان تجعل من الصعب رؤية ما يحدث خلالها، أو - علي أقل تقدير - تجعل الرؤية غير دقيقة وغير واضحة بما فيه الكفاية. ومنها عامل الزمان، فقد كان الوقت ليلاً، وكان وهج المشاعل والمصابيح يلقي - على تلك الأجمة الملتفة - ظلال أشباح متدافعة لتلك الأشجار ولذلك «الجمع الكثير»^(٤٨) من الجند المهاجمين.

ومنها عامل الطقس، فلقد كان الجو بارداً، وأوقد الحَدْمُ النَّارَ للتدفئة^(٤٩). ومن هذه العوامل أيضاً أن هؤلاء الجنود لم يكونوا يعرفون وجه عيسى ولا شكله من قبل، ولا شك أن تدافعهم - وهم كثر - على شخص لا يعرفونه، يرفع من نسبة الخطأ في عملهم إلى درجة شديدة، ويجعل وقوعهم في الالتباس أمراً شديداً الاحتمال، أو - وهو ما نراه - أمراً مؤكداً لا مفر منه.

إذن كانت الظروف مواتية لحدوث الاشتباه، ولم يكن هناك شهود عيان لوقعة القبض يؤكدون شخصية المقبوض عليه، ويعترفون صراحة أن عيسى، وخاصة من تلاميذ عيسى الذين فروا وتركوه، وحاول أحدهم - إن صحَّ أنه مرقس صاحب الإنجيل، مع الخلاف الشديد في ذلك^(٥٠) أن يتبع الجنود بعد أن قبضوا على مَنْ ظنوه

(٤٨) انجيل متى ٢٦/٤٧، انجيل مرقس ١٤/٤٣.

(٤٩) انجيل مرقس ١٤/٥٤، انجيل لوقا ٢٢/٥٥، انجيل يوحنا ١٨/١٨.

(٥٠) د. محمد شليبي شتوي، الانجيل، دراسة وتحليل، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، مكتبة الفلاح، الكويت ص ٥٢-٦١. وسيسار الى هذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا: د. محمد شليبي شتوي، الانجيل.

عيسى، ولكنهم أمسكوا به، فذعر، وترك لهم إزاره الوحيد الذي كان يلبسه على لحمه، والذي كانوا يجذبونه منه، وهرب منهم عرياناً^(٥١). وهكذا فرَّ الرجل الذي كان من الممكن أن يعدَّ شاهد عيان لوقعة القبض. وحتى بطرس - تلميذ عيسى - الذي تبع الجنود: فأول ما يلاحظ عليه أنه تبعهم من بعيد^(٥٢) كما أنه حين دخل دار رئيس الكهنة التي اقتاد الجنود المقبوض عليه اليها، قيل إنه جلس بين الخدم^(٥٣) وسط الدار^(٥٤) حول نار يستدفئون بها،^(٥٥) وقيل إنه جلس خارج الدار^(٥٦)، أسفله^(٥٧)، ولما طلبوا منه التعرف على الشخص الذي قبضوا عليه، أنكره ثلاث مرات^(٥٨)، بل أخذ يلعن ويحلف أنه لا يعرفه^(٥٩). وكان بطرس صادقاً، وكان الحقُّ معه، لأنه يتيقن ان الذي قبضوا عليه لم يكن هو عيسى الذي يعرفه تمام المعرفة.

وبعد، فما الذي يمكن أن يؤكد أن الذي قبضوا عليه هو عيسى؟ ألم يقعوا في التشابه؟ لقد كان التشابه شديداً لدرجة الاتحاد، فالتبس عليهم الشخص، وقبضوا على شبيه عيسى. وليس على عيسى نفسه، وصدق الله العظيم في قوله الحق: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾^(٦٠). وعيسى نفسه تنبأ بوقوع الشك فيما سيحدث له، فقد قال لتلاميذه: كلكم تشكون في هذه الليلة^(٦١)، وقال تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾^(٦٢).

(٥١) انجيل مرقس ١٤/٥١-٥٢.

(٥٢) انجيل متى ٢٦/٥٨، انجيل مرقس ١٤/٥٤، انجيل لوقا ٢٢/٥٤.

(٥٣) انجيل متى ٢٦/٥٨، انجيل مرقس ١٤/٥٤، انجيل لوقا ٢٢/٥٥، انجيل يوحنا ١٨/١٨.

(٥٤) انجيل لوقا ٢٢/٥٥.

(٥٥) انجيل مرقس ١٤/٥٤، انجيل لوقا ٢٢/٥٥، انجيل يوحنا ١٨/١٨.

(٥٦) انجيل متى ٢٦/٦٩.

(٥٧) انجيل مرقس ١٤/٦٦.

(٥٨) انجيل متى ٢٦/٦٩-٧٥، انجيل مرقس ١٤/٦٦-٧٢، انجيل لوقا ٢٢/٥٤-٦٢، انجيل لوقا ٢٢/١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٧.

(٥٩) انجيل متى ٢٦/٧٤، انجيل مرقس ١٤/٧١.

(٦٠) سورة النساء/١٥٧.

(٦١) انجيل متى ٢٦/٣١، انجيل مرقس ١٤/٢٧.

(٦٢) سورة النساء/١٥٧.

الأحكام والتشابه وجهان متقابلان للشيء الواحد

وهكذا كان التشابه الذي وقع فيه النصارى - في هذه القضية - له وجه حقيقي - وهو أن عيسى عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل - كما أن له وجهاً مُلبساً - وهو زعمهم أنه صُلبَ وقُتِلَ - ولكنهم ضلُّوا عن الوجه الحقيقي، واتبعوا الوجه المتشابه. ويُفهم من هذا أن أي شيء له وجه حقيقي هو أصل وضعه، ولكنه - في ظروف خاصة - يمكن أن يلتبس على البعض فيبدو بوجه آخر، أو - بعبارة أخرى - له وجه مُحكم، ووجه متشابه. ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى القرآن كله بأنه مُحكم، كما وصفه بأنه كله متشابه أيضاً.

قال تعالى: (الرُّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ^(٦٣) وقال سبحانه: ﴿الرُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ^(٦٤)، وقال تبارك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ^(٦٥) وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُسِّنُّ * وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمِ﴾ ^(٦٦) وقال جلَّ وعلا: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ^(٦٧)، وقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّيَّ حَكِيمٍ﴾ ^(٦٨).

وَوَصَّفَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِالْحَكِيمِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُحْكَمٌ، وَذَلِكَ لَصَرْفِ «مَفْعَلٍ» إِلَى «فَعِيلٍ»، كَمَا قِيلَ: عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَعْنَى مُؤْلَمٌ. وَالْعَرَبُ تَعْرِفُ ذَلِكَ فِي لَفْظِهَا وَوَرَدَ فِي أَشْعَارِهَا، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ الزَّبِيدِي - وَقَدْ جَعَلَ السَّمِيعَ بِمَعْنَى السَّمْعِ: أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُوْرِقُنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعٌ؟ ^(٦٩)

(٦٣) سورة هود/١.

(٦٤) سورة يونس/١.

(٦٥) سورة لقمان/١-٢.

(٦٦) سورة يس/١-٢.

(٦٧) سورة آل عمران/٥٨.

(٦٨) سورة الزخرف/٤.

(٦٩) ابن منظور، لسان العرب (سمع).

وقال الأعشى وقد سمي القصيدة المحكمة حكيمة :

وغريبة، تأتي الملوك، حكيمة . . . قد قلتها ليقال : من ذا قالها؟ (٧٠)

والإحكام - في اللغة - يفيد معنيين رئيسيين يمكن أن تندرج تحتها معانٍ عدة فأما أولها فهو المنع والرد والكف : تقول العرب : حَكَمْتُ، وَحَكَمْتُ، وَأَحَكَمْتُ : بمعنى مَنَعْتُ وَرَدَدْتُ وَكَفَفْتُ، ويقال : حكم الشيء وأحكمه منعه من الفساد، ولذا سمي الحاكم بهذا الاسم لأنه يمنع الظالم من الظلم، وسميت الحكومة بهذا الاسم - كما يرى الأصمعي - لأنها ترد الرجل عن الظلم، وسميت حَكَمَةُ اللجام بذلك - وهي ما أحاط بحنكي الدابة، حديدة في اللجام تكون على أنفها - لأنها ترد الدابة عن كثير من الجهل، وعن مخالفة رابكها.

وقال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي : ردوهم وكفّوهم وأمنعوهم عن التعرّض لي.

أما المعنى الآخر الرئيس للإحكام، فهو الاتقان والتوثيق، يُقال : أحكم الأمر أتقنه، ويقال للرجل الذي يتقن الأمور، أو يحسن دقائق الصناعات : حكيم، ويقال : احتكم الأمر واستحكم وتّق، والعربُ تقول في البناء الوثيق والعهد الوثيق الذي لا يمكن نقضه : إنّه مُحْكَم. ويدخل تحت هذين المعنيين معانٍ آخر منها : منع الفساد والاضطراب، وكَفَّ الدّخْل، والفصل والتفريق والتمييز التي بها يتحقق الاتقان والتوثيق والضبط، وإذا مُنِع الفساد عن الشيء، واتّقِنَ وَضِبَطَ حصل التمام والسداد... وغير ذلك من معانٍ.

وَوَصَفُ القرآن الكريم بالأحكام يَدُلُّ على أَنَّ الله سبحانه وتعالى قد منع دخول الفساد والبطلان والضعف إلى كتابه، وَكَفَّ عنه كل دخل قد يكون احتمالاً لتطرق الشك إليه أو الاضطراب، وجعله قمة في الاتقان والدقة والضبط، وغاية في الكمال والسداد والصواب، وفاصلاً بين الحق والظلم، والنور والظلام، والخير والشر، والهدى والضلال، ولذلك - كما وصف الله كتابه بأنه حكيم، وصف نفسه تعالى - في المقابل -

(٧٠) ابن منظور، لسان العرب (حكم).

بذات الوصف، فقال - وهو أصدق القائلين : ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ أَحْكَمَتْ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٧١)، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٧٢)، وقال سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٧٣)، وقال تبارك : ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٧٤).

هذا هو معنى أنَّ القرآن الكريم كله مُحْكَم، ويلخصه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٧٥). وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٧٦).

ولقد أجمع المفسرون والعلماء على صحة هذا المعنى وسلامته، ولا خلاف بينهم في ذلك، وجاءت أقوالهم مؤكدة لهذه الفكرة وموضحة لها، فقال الطبري (ت ٣١٠هـ) : «إحكام آيات القرآن إحكامها من خَلَلٍ يكون فيها، أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله»^(٧٧)، وقال السيوطي (ت ٩١١هـ) : «إنَّ المراد بإحكامه إتقانه، وعدم تطرق النقض والاختلاف إليه»^(٧٨)، وقال الدكتور صبحي الصالح : إنَّ إحكام القرآن «إتقانه وجمال نظمه بحيث لا يتطرق إليه الضعف في ألفاظه ومعانيه»^(٧٩)، وقال مناع القطان : معنى «أنَّ القرآن كله مُحْكَم : أي أنه كلام متقن فصيح يميز - بين الحق والباطل والصدق والكذب»^(٨٠)، وقال الدكتور أمير عبدالعزيز : «إنَّ مدلول

(٧١) سورة هود/ ١.

(٧٢) سورة الحج/ ٥٢.

(٧٣) سورة النمل/ ٦.

(٧٤) سورة الزمر/ ١، سورة الجاثية/ ٢.

(٧٥) سورة فصلت/ ٤١- ٤٢.

(٧٦) سورة النساء/ ٨٢.

(٧٧) الطبري، جامع البيان ١١/ ١٨٠.

(٧٨) السيوطي، الاتقان ٣/ ٣.

(٧٩) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٥، دار العلم للملايين بيروت، ص ٢٨١. ويشير الى هذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا : د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن.

(٨٠) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة التاسعة عشرة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت ص ١٨٩. ويشير لهذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا : مناع القطان، مباحث في علوم القرآن.

الإحكام... أن القرآن كله متقن لا يتطرق اليه نقص أو عيب، فهو كامل متكامل، جاء على غاية من الاتقان والإحكام»^(٨١).

وفي آية أخرى وَصَفَ الله تعالى القرآن كله بأنه متشابه، وذلك في قوله سبحانه : ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(٨٢). فهذه الآية الكريمة تقرر أن القرآن كله متشابه، ولكنها تضيف إلى ذلك - موضحة - أن هذا التشابه مثنائي، أي ذو معنى ثنائي، وهو المعنى الذي أثبتناه من قبل، فالتشابه له درجتان، درجة التماثل ودرجة الالتباس، وبناء على هذا يكون القرآن كله متشابهاً على نحوين :

١ - التماثل : أي أن آياته وسوره كلها يشبه بعضها بعضاً في الجمال والجلال والكمال، فنظمها واحد وصدقها واحد، وقوتها واحدة بمعنى أن عناصر القرآن الكريم وأفكاره ومعانيه متجانسة أي تابعة لنظام منطقي واحد، ومنسوبة إليه، ونسبة كل عنصر من عناصره، وكل فكرة من أفكاره، وكل معنى من معانيه - إلى الكل واحدة.

وقد أجمع المفسرون والعلماء على صحة هذا المعنى وسلامته، ولا خلاف بينهم في ذلك، وجاءت أقوالهم مؤكدة لهذه الفكرة وموضحة لها، فقال سعيد بن جبير (ت ٩٣هـ) : «يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويدل بعضه على بعض»^(٨٣)، وقال الجصاص (ت ٣٧٠هـ) : إن معنى التشابه هنا «التماثل، ونفى الاختلاف والتضاد عنه»^(٨٤)، وقال القرطبي (ت ٦٧١هـ) : «يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة

(٨١) د. أمير عبدالعزيز، دراسات في علوم القرآن، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن. ص ١٨٠. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : د. أمير عبدالعزيز، دراسات في علوم القرآن.

(٨٢) سورة الزمر/٢٣.

(٨٣) الطبري، جامع البيان ٢٣/١٠.

(٨٤) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت ٣٧٠هـ = ١٩٨٠م)، أحكام القرآن، طبعة الأستانة ١٣٢٨هـ، الجزء الثاني ص ٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الجصاص، أحكام القرآن.

ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقص ولا اختلاف^(٨٥)، وقال السيوطي : «يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز»^(٨٦)، وقال الدكتور صبحي الصالح : «تمائل آياته في البلاغة والاعجاز، وصعوبة المفاضلة بين أجزائه»^(٨٧) وقال الدكتور محمد بن لطفي الصباغ «يشبه بعضه بعضاً في الهداية والبلاغة والسلامة من التناقض والتفاوت، ويصدق بعضه بعضاً»^(٨٨).

٢ - الالتباس : أي أن القرآن كله يُمكن أن يُثار فيه الالتباس، فالقرآن «حَمَلٌ وجوه» كما وصفه عمر بن الخطاب. كما أنه إذا كان القرآن كله يشبه بعضه بعضاً - بمعنى أنه يماثل بعضه بعضاً - فإن إمكان حدوث مشكلة الالتباس - على البعض - في أجزاء منه، لا يستبعد عن باقي أجزائه أيضاً : فالقرآن كُلُّ متكامل، يأخذ بعضه بأعناق بعض، وما دام المتشككون يستطيعون أن يثيروا الاشتباه في شيء ما منه، فإنهم يستطيعونه أيضاً أن يثيروه في أي من أجزائه.

ولعل مما يعزز ذلك أنه إذا كان هؤلاء قد استطاعوا إثارة التشابه في آيات ساعدتهم طبيعة موضوعها على تسهيل مهمتهم التشكيكية فيها - مثل آيات الذات والصفات - فقد استطاعوا أيضاً أن يثيروا التشابه في آيات آخر تختلف طبيعة موضوعها عن طبيعة موضوعات الآيات الميتافيزيقية، ويصعب إثارة التشابه فيها - إلا عليهم - ومنها مثلاً تلك الآيات العديدة التي تثبت أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والانجيل على عيسى - عليهم السلام أجمعين^(٨٩) فإن هذه الآيات واضحة الدلالة ليس فيها عوج، ولا يظن أنها قد تكون محل اشتباه، إلا أن هؤلاء المتشككين رأوا أن هذه الآيات تعني أن «الكتاب المقدس» الموجود لدى اليهود والنصارى هو مجموع

(٨٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٩/١٥.

(٨٦) السيوطي، الاتقان ٣/٣.

(٨٧) د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن ص ٢٨١.

(٨٨) د. محمد بن لطفي الصباغ، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، ص ١٥٢. وسيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : د. لطفي الصباغ، لمحات في علوم القرآن.

(٨٩) انظر في هذه الآيات : سورة آل عمران/٣، ٤٨، ٥٠، ٦٥، ٩٣، سورة المائدة، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٦٦، ٦٨، ١١٠، سورة الأعراف/١٥٧، سورة التوبة/١١١، سورة الفتح/٩، سورة الصف/٦، سورة الجمعة/٥، سورة الحديد/٥، سورة النساء/١٦٣، سورة الإسراء/٥٥.

تلك الكتب السماوية التي أنزلها الله على هؤلاء الأنبياء، وأن القرآن الكريم نفسه قد اعترف بهذا.

والواقع أن قولهم هذا ليس من الحقيقة في شيء، وإنما هو محض كذب وافتراء، أو - بعبارة أخرى - هو اشتباه مقصود - يمكن للمتخصصين - كشفه بسهولة ذلك أن «الكتاب المقدس» عندهم يحتوي على أجزاء ضخمة من وضع أحبارهم وقديسيهم وملهميهم - كسفر راعوت، وأسفار صموئيل، والملوك، والأخبار، وعزرا، ونحميا، وطوبيا، وأستير، ويهوديت، والجامعة، ونشيد الأنشاد، ورسائل بولس، ويعقوب، وبطرس ويوحنا، ويهوذا - وغير ذلك كثير - فهذه الأجزاء التي يضمها ما يطلقون عليه اسم «الكتاب المقدس» - ليست من تنزيل الله، ولا تحدث بها أنبياء الله، ولا ذكرها القرآن الكريم قط، لا من قريب ولا من بعيد، وهم الذين جعلوا من إثارة التشابه في آياته التي تتحدث عن التنزيل الإلهي للتوراة على موسى والزبور على داود والانجيل على عيسى سنداً لدعواهم المزعومة المشبوهة.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة على ذلك، فالتشابه يمكن أن يثيره المتشككون في أي آية من آيات القرآن الكريم، ويبدو أن الماوردي قد لحظ ذلك حين ذكر في تعريفه التشابه أنه يكون في أعداد الصلوات، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان مثلاً. (٩٠)

وهكذا يتضح المعنى الثنائي للفظ التشابه، الأمر الذي يجعلنا نقف بصورة واضحة على معنى قوله تعالى : ﴿الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مِثْلَ ثَمَرٍ مِثْلَ ثَمَرٍ مِنْ جُلُودِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. (٩١) فهذه الآية تقرر أن القرآن الكريم كله كتاب متشابه، ولكنها تضيف - موضحة - أن هذا التشابه فيه ذو معنى ثنائي، أي أن له وجهين : وجه متشابه، ووجه مُحكم. لذلك وصف الله تعالى هنا التشابه بأنه مثالي، ولعل التقابل في هذه الآية بين اقشعرار جلود المؤمنين عند قراءتهم للقرآن - ثم عودتها بعد ذلك إلى الليونة - لعل هذا التقابل يعزز تلك الفكرة، ذلك بأن الوجه المتشابه منها

(٩٠) السيوطي، الاتقان ٤/٣.

(٩١) سورة الزمر/٢٣.

هو الذي يثير في جلودهم القشعريرة وَجْلاً من الله ، فإذا ما بحثوا ومحصوا ، زالت عنهم هذه القشعريرة ، لأنهم يكونون - بهذا البحث والتمحيص - قد توصلوا إلى تفهم الوجه المُحكم ، فتحصل لهم عند ذلك الطمأنينة ، وهي طمأنينة زائدة قوية ، لأن جلودهم التي كانت مقشّرة ليست هي وحدها التي تلين . بل تلين معها أيضاً قلوبهم .

ولكن ليس معنى أن القرآن كله يمكن أن يُثار فيه التشابه أنه كتاب متشابه أصلاً والأحكام فيه عارض ، بل العكس هو الصحيح ، فهو كتاب مُحكم أصلاً ، والتشابه الذي يقع فيه إنما هو عارض زائل يمكن كشفه بالدراسة الواعية والبحث العلمي الموضوعي ، وهذه حقيقة مقررة لا شك فيها ، يثبتها ما سبق أن أوضحناه - آنفاً - من أن أي شيء متشابه له وجهان : وجه حقيقي ، ووجه مشتبه ، وهذا الوجه الحقيقي هو أصل وضعه ، وهو الوجه المُحكم .

كما أن الوجه المشتبه يمكن ردّه إلى الوجه المُحكم ، ذلك لأن النص القرآني أساساً نص إلهي ، من لدن الله العليّ القدير ، ولقد أكد الله تعالى أنه سبحانه الذي أنزل الآيات المُحكمات وأنزل الآيات المتشابهات من لدنه ، قال تعالى : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحكمات هُنَّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات﴾^(٩٢) ، ان هذه الآية صريحة في الدلالة على المُحكمات والمتشابهات كلهنّ منزلات من لدن الله ، ولقد شهد الراسخون في العلم على ذلك ، قال تعالى : ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا﴾^(٩٣) . ولما كان الله سبحانه لا يتناقض ولا يدخل كلامه خلل أو اضطراب - تعالى الله عن ذلك علوّاً شديداً - لذلك كان لا بد من أن تعود المتشابهات الى المُحكمات لأنهنّ جميعاً من أصل إلهي واحد متعال . ولقد وصف الله تعالى الآيات المُحكمات بأنهن «أم الكتاب» ، ولم يصفهنّ بأنهن أمهات الكتاب ، وذلك على سبيل المبالغة في توكيد وحدوية المصدر والأحكام ، ونفى شبهة تعدد أصول الكتاب ، وهذا يماثل قوله تعالى : ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾^(٩٤) ، ولم يقل : آيتين ، وذلك لأن شأنها واحد ، فلم تكن الآية لها إلا به ، ولم تكن له إلا بها .

(٩٢) سورة آل عمران/٧ .

(٩٣) سورة آل عمران/٧ .

(٩٤) سورة المؤمنون/٧ .

ووصف الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب وَصَفَ له دلالته القوية في هذا الصدد، وذلك لأن الأم في اللغة : الأصل. جاء في لسان العرب : أم كل شيء أصله وعماده، وكل شيء انضمت إليه أشياء - أو انضم إليه سائر ما يليه - فإن العرب تسمي ذلك أمًا، فأم البشر : حواء، وأم القردان : النقرة التي من أصل فرسين البعير، وأم التناثف أشدها، وهي المفازة البعيدة، وأم الحرب : الراية، وأم الرمح : اللواء، وفي ذلك يقول ذو الرمة وهو يصف راية معقودة على قناة يجتمع هو وصحبه في النزول والرحيل ولقاء العدو :

وأسمر قوام إذا نام صحتي	خفيف الثياب لا توارى له أزرا
على رأسه أم لنا نقتدي بها	جماع أمور لا نعاصي لها أمرا
إذا نزلت قيل : انزلوا وإذا غدت	غدت ذات تزريق ننال بها فخرا

ويقول شاعر آخر :

وسلبنا الرمح فيه أمه	من يد العاصي وما طال الطول
وأم القوم : رئيسهم المسؤول عنهم، وفي ذلك يقول الشنفرى :	
وأم عيال قد شهدت تقوتهم	إذا أطعمتهم أحترت وأقلت

فأراد بأم عيال : تأبط شراً، وكان يتزعم الصعاليك ويلي إطعامهم.
وأم النجوم المجرة، لأنها مجتمعة النجوم، وفي ذلك يقول تأبط شراً :

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك
--------------------------------	------------------------------

والأم للرأس : الدماغ، وفي ذلك يقول الشاعر :

يدعن عن أم رأسه مأمومه	وأذنه مجدوعة مصلومة
------------------------	---------------------

وأم المثوى : مدبرة منزل الرجل الذي ينزله، قال الشاعر :
وأم مثواي تدري متى... (٩٥)

وهكذا، فكل جامع أمراً - كله أو معظمه - أو مقدماً له، إذا كانت له توابع تتبعه وهو لها امام جامع، فإن العرب تسميه أما.

وبناء على هذا، فإنَّ وَصَفَ الآياتِ المُحكِّماتِ بأنَّهنَّ أمُّ الكتابِ يعني - كما قال الطبري - : «أنَّهنَّ أصلُ الكتابِ الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه من الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا به من الفرائض في عاجلهم وآجلهم»^(٩٦). وإذا كان المُحكِّم هو جماع القرآن، فإنَّ التشابه يُردُّ إليه، ويعود لينضوي تحته، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ القرآن كله مُحكَّم لا يتطرق إليه الاضطراب أو التناقض، وما التشابه سوى عارض زائل يمكن كشفه ودحضه.

أما قوله تعالى : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحكِّمات هنَّ أمُّ الكتاب وأخر متشابهات﴾، فلا يعني التقابل فيه بين المُحكِّمات والمتشابهات أنَّ القرآن الكريم قد نزل على قسمين، منفصلين : قسم مُحكَّم وآخر متشابه، بل يعني أنَّ القرآن منه آيات تتشابه على البعض نظراً لتعارضها الظاهري المتوهم مع آيات مُحكِّمات أصول، فيبدو الأمر وكأنَّ هناك تناقضاً بين آيات قوية وآخر ضعيفة، أو بين آيات تمثل الأسس والأصول وآخر خارجة عنها. فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ كلاً من هذه المُحكِّمات والمتشابهات من عنده، ومعنى هذا أنها كلها مُحكِّمة، لأنَّ كلامه تعالى كله مُحكَّم لا تعارض فيه ولا اضطراب، وهذا ما يعرفه الراسخون في العلم ويؤمنون به، وما لا يذكُرُهُ إلاَّ أصحابُ العقول.

ليس في القرآن الكريم إذن متشابه أصلاً، بمعنى أنَّ الله تعالى لم يجعل الأصل التنزيلي لبعض الآيات مُحكِّماً ولبعضها الآخر متشابهاً ملتبساً بنفسه، مختلطة أفكاره ومعانيه بعضها ببعض أصلاً ومتناقضة، بل أنزل الله القرآن الكريم كله مُحكِّماً أصلاً، أما ما قد يتشابه منه على البعض فليس معنى هذا أنه ليس من القرآن، بل هو من القرآن، ولكن ما أثاره بعض المتشككين فيه من تشابه إنما هو مجرد افتعال لغرض خبيث في قلوبهم. ولو كان في القرآن متشابه أصلاً لتعارض مع المُحكَّم فيه، وهذا ما لا يمكن، نظراً لوحودية المصدر الإلهي للقرآن، وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^(٩٧).

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم لهداية الناس أجمعين، وإخراجهم من

(٩٦) الطبري، جامع البيان ٣/ ١٧٠.

(٩٧) سورة النساء/ ٨٢.

الظلمات الى النور وهذه الغاية السامية تقتضي أن يكون القرآن قد نزل واضحاً أصلاً، فلكي يهتدي الناس بالقرآن، فإن عليهم أن يفهموه، ولو كان فيه مُلبسٌ أصلاً، لصعب عليهم فهمه وتعذر عليهم العمل به، فكيف يهتدون به وقد أنزل الله عليهم بعضه فيه لبس وإشكال؟ وهل يأخذون ببعضه ويكفرون ببعض كما فعل اليهود من قبل فغضب الله عليهم؟ أم يتخبطون في دياجير الجهل والغموض والحيرة وهم يحاولون إزالة اللبس؟ وفي كلتا الحالتين ينتفي تحقق الغاية السامية التي من أجلها أنزل الله تعالى القرآن، وبناء على هذا فإن التشابه ليس أصلياً في القرآن بل هو عرض مفتعل وتخيل خادع لبعض ذوي النفوس المريضة، يمكن دفعه وإزالته بالبحث والدراسة.

ولعل ما يعزز هذا ذلك الجمع من الكتب التي ألفها مسلمون غيرون على القرآن يذكرون فيها بعض الآيات التي يتوهم أنها تتعارض مع آيات أخرى، ويقومون بحل هذا الاشكال المتوهم، كما فعل الشيخ محمد أمين الشنقيطي مثلاً في مقالاته التي نشرها في مجلة الجامعة الإسلامية تحت عنوان «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، وكذلك الشيخ خليل ياسين في كتابه «أضواء على متشابهات القرآن»، والأستاذ زكريا علي يوسف في كتابه «مشكلات القرآن ومشكلات الأحاديث»، وغير ذلك كثير، فهذا الصنيع منهم يبين أن إثارة التشابه في القرآن عملية مفتعلة أساساً من قبل أعداء الإسلام.

الحكمة في قبول القرآن للتشابه بصفة عارضة

وعلى الرغم من أن القرآن كتاب مُحكم أصلاً والتشابه فيه عارض مفتعل، فإن إثارة التشابه في نصوصه ممكنة، وهي لا تضره شيئاً، بل إن هناك العديد من وجود الحكمة في ذلك، أهمها وأبرزها هو إثبات صدق الوحي والرسول (ﷺ)، والبرهان على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى حقاً وصدقاً، وأنه ليس من وضع البشر، وأنه لم يتعرض قط - ولن يتعرض أبداً - إلى أي دخل أو تحريف أو تغيير، وأنه هو نفسه كما أنزله الله تعالى لم تشبه أية شائبة من شوائب الاضطراب. وذلك لأن قبول القرآن للتشابه يحث على التفكير والتدبر في آياته وسوره، ونبذ الجمود والتقليد، والتمحيص في مفرداته وعباراته، وصوره وأخيلته، وأفكاره ومعانيه، والكشف عن العلاقات الفكرية الأصولية التي تربط بين أجزائه، وعن الفروع المتفرعة عنها، وتبين الصلات بين الأصول والفروع، وأوجه الجمال الفني في القوالب التعبيرية التي وضعت فيها على هذا النحو

المثير، وبناء على ذلك تتم إزالة شبه التعارض بين النصوص القرآنية التي يخيل للمتشككين وجودها الظاهري. وبهذا تتأكد مصداقية التنزيل الإلهي للقرآن الكريم، كما يتأكد صدق الرسول (ﷺ) في تبليغه للناس كما أنزله الله تعالى عليه، فيزداد القرآن قوة على قوته، ويتألف نوراً على نوره، ويتطور الفكر، ويتقدم العلم، وتتوثق صلته بالإيمان، وتنكشف فتنة الذين كفروا وتشككوا وأرادوا أن يُضِلُّوا المؤمنين ويزيغونهم عن الصراط المستقيم، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، ويستقن الذين أوتوا الكتاب. كما أن ذلك يؤدي إلى إظهار فضل علماء المسلمين، ويدعو إلى تكريمهم وإعلاء شأنهم. وهكذا يميز الله الخبيث من الطيب، والمؤمن من الكافر، لأن التشابه ابتلاء يبتلي به الله الناس، اختباراً لقلوبهم وضمائرهم، وامتحاناً لإيمانهم وتقواهم، فيمحص المؤمنين ويمحق الكافرين، ويؤدب الإنسان، ويعلمه التواضع والإنابة إلى الله، ففوق كل ذي علم عليم، وهذا يستوجب ألا يغتر الإنسان بما يتوهمه من علم، وأن يستلهم دائماً من الله الهداية والرشاد.

معرفة تأويل المتشابه

هل يمكن معرفة تأويل المتشابه؟ إنه سؤال هام جداً، ولقد انقسم المفسرون والمفكرون في الإجابة عنه إلى فريقين: رأى أحدهما أنه من المستحيل معرفة تأويل المتشابه، لأنه مما اختص الله تعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من الخلق. بينما رأى الفريق الآخر أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه.

ويعود سبب الخلاف بين هذين الفريقين إلى خلافهم حول تفسير «الواو» الواقعة بين لفظ الجلالة وكلمة «الراسخون»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾. ^(٩٨) فقد رأى الفريق الأول أن الكلام - من هذه الآية - تم عند لفظ الجلالة، وأن الواو التي بعده للاستئناف أو للاستقبال، وأن ما بعدها كلام مقطوع عما قبله، أوله كلمة «الراسخون»، وهي مبتدأ،

وخبره جملة «يقولون». بينما رأى الفريق الآخر أنَّ الواو عاطفة و«يقولون» حال في موضع نصب. (٩٩)

ومن أصحاب الرأي الأول : السيدة عائشة أم المؤمنين التي قالت : كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بحكمه ومتشابهه، ولم يعلموا تأويله» (١٠٠) ومنهم كذلك ابن عباس الذي كان يقرأ : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به﴾ (١٠١)، وكذلك ابن مسعود وقرأ : ﴿وإن تأويله إلا من عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ (١٠٢)، وكذلك أبي بن كعب، وقرأ : ﴿ويقول الراسخون﴾. (١٠٣)

ومن أنصار هذا الرأي أيضاً عمر بن الخطاب، وابنه عبدالله، وعروة بن الزبير، وابنه هشام، وأبو الشعثاء، وأبو نبيك الأسدي، وعمر بن عبدالعزيز، والإمام مالك بن أنس، والكسائي، والأخفش، والفراء، وثعلب، وأبو عبيد، وابن الأنباري، والخطابي،

(٩٩) انظر في ذلك : الطبري، جامع البيان ١٨٢/٣ - ١٨٦، الجصاص، أحكام القرآن ٥/٢، أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر التيمي البكري الرازي، المعروف بالفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٤هـ)، التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ = ١٩٨١م، الجزء السابع ص ١٩١. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الفخر الرازي، مفاتيح الغيب.

(١٠٠) الطبري جامع البيان ١٨٢/٣، السيوطي، الدر المنثور ١٥١/٢، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني الصنعاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ = ١٧٥٩ - ١٨٣٥م)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، نشر : محمود علي، بيروت (د.ت)، الجزء الأول ص ٣١٥ - ١٦. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الشوكاني، فتحي القدير.

(١٠١) ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، السيوطي، الدر المنثور ١٥٠/٢، ابن عطية، القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطي الأندلسي (٤٨١ - ٥٤٦هـ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، بالمغرب، صدر عن مديرية الشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف المغربية ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م، الجزء الثالث ص ٢٣. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن عطية، المحرر الوجيز. الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري، المعروف بابن البيع (٣٢١ - ٤٠٥هـ) المستدرک. طبعة صورها دار الكتاب العربي ببيروت عن طبعة حيدر آباد التي صدرت ١٣٣٤هـ. الجزء الثاني ص ٢٨٩. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الحاكم، المستدرک. قال الحاكم تعليقا على هذا الأثر : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(١٠٢) الطبري، جامعة البيان ١٨٤/٣، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، السيوطي، الدر المنثور ١٥٠/٢.

(١٠٣) الطبري، جامع البيان ١٨٤/٣، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، ابن عطية، المحرر الوجيز ٢٣/٣، السيوطي، الاتقان ٧/٣.

وأبو علي الجبائي (وهو من المعتزلة). والفخر الرازي، وابن جرير الطبري، وغيرهم^(١٠٤). وذهب جابر بن عبدالله، والشعبي، وسفيان الثوري، في تعريفهم المحكم والمتشابه إلى أن المحكم هو ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره والمراد منه، أما المتشابه فهو ما لا يمكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى وحده دون سائر خلقه، ولم يطلع عليه أحداً منهم، وذلك مثل سر الروح، ووقت قيام الساعة، وأشرط القيامة.^(١٠٥)

وأصحاب هذا الرأي وأنصاره هم أكثر الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم، خصوصاً أهل السنة^(١٠٦). أما أصحاب الرأي الآخر فيأتي في مقدمتهم مجاهد بن جبر المكي، الذي يقول: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به».^(١٠٧)

وقد نسب إلى ابن عباس أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»^(١٠٨)، وقال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أوقفه عند كل آية، وأسأله عنها، وكان يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»^(١٠٩)، وقد ورد في

(١٠٤) انظر فيهم: الطبري، جامع البيان ١٨٣/٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٤، ابن الجوزي زاد المسير ٣٥٤/١، السيوطي، الدر المنثور ١٥١/٢، والاتقان ٨/٣، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٠/٧، الشوكاني، فتح القدير ٣١٥/١.

(١٠٥) الطبري، جامع البيان ١٧٤/٣ - ١٧٥، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٩/٤ - ١٠، ابن عطية، المحرر الوجيز ١٧/٣، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥١/١، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٤/٧، الشوكاني، فتح القدير ٣١٤/١.

(١٠٦) الطبري، جامع البيان ١٨٤/٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٤/٤ - ١٥، ٢٩/١٧، ابن عطية، المحرر الوجيز ١٧/٣، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٠/٧، الشوكاني، فتح القدير ٣١٥/١.

(١٠٧) أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي المخزومي (٢١ - ١٠٤هـ)، تفسيره، تحقيق عبدالرحمن بن محمد السورتي، دولة قطر ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م. الجزء الأول ص ١٢٢. ويشير إلى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: مجاهد، تفسيره، وانظر أيضاً: الطبري، جامع البيان ١٨٣/٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٤، السيوطي، الدر المنثور ١٥٤/٢، الشوكاني، فتح القدير ٣١٥/١.

(١٠٨) الطبري، جامع البيان ١٨٣/٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٧/٤، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، ابن عطية، المحرر الوجيز ٢١/٣، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٠/٧، الشوكاني، فتح القدير ٣١٦/١.

(١٠٩) الشيخ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)، وتلميذه السيد محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥م)، تفسير المنار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (د.ت)، الجزء الثالث ص ١٨٢. ويشير إلى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: الإمام محمد عبده، تفسير المنار.

الأخبار أن مجاهدًا عرض المصحف على ابن عباس ثلاث مرات أو ثلاثين مرة. (١١٠)
ومن أنصار هذا الرأي أيضاً : الربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد، وأبو الحسن الأشعري، وابن فورك، وابن قتيبة، وأبوسليمان الدمشقي، والعتبي، والخصاص (١١١)، والإمام أحمد بن حنبل (١١٢)، وتقي الدين بن تيمية في تفسيره لسورة الإخلاص (١١٣)، وغيرهم.

رَأَيْنَا

وبصرف النظر عن الخلاف الطويل بين الفريقين حول الحجج النحوية التي تؤيد موقف كل منهما، فإن إعراب «الراسخون» يقتضي الوجهين اللذين قالاً بهما. وعلى هذا الأساس، فإن كلا الرأيين صحيح، ولكن لصحة كل رأي منهما مدى محدد. وتفصيل ذلك أن كلا الفريقين نظر الى بعض موضوعات التشابه وبنى على تقديره لها موقفه من استحالة معرفة تأويلها، أو إمكان هذه المعرفة

فالفريق الأول نظر الى التشابه بوصفه منحصراً في الآيات التي تتناول موضوعات غيبية، ومنها الآيات التي تتحدث عن ذات الله سبحانه وصفاته، ومقادير الثواب والعقاب، وحقيقة نعيم الجنة وعذاب النار، وخروج عيسى عليه السلام، وبأجوج، ومأجوج، والدجال، والدابة، والدخان... وغير ذلك من الآيات التي تناولت هذه الموضوعات الغيبية، والتي صرح القرآن الكريم بأنها موضوعات اختص الله تعالى بعلمها، كما أكد الله تعالى أن تأويل هذه الآيات لم يأت بعد، قال تعالى : ﴿بل كذبوا بما

(١١٠) السيوطي، الاتقان ١٩٠/٢ (طبعة الحلبي).

(١١١) الطبري، جامع البيان ١٨٣/٣، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٧/٤ - ١٨، الخصاص، أحكام القرآن ٤/٢، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥٤/١، ابن عطية، المحرر الوجيز ١٧/٣، ٢٣، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٠/٧، السيوطي، الدر المنثور ١٥٢/٢.

(١١٢) انظر : الإمام محمد عبده، تفسير النار ١٧٥/٣.

(١١٣) وانظر كذلك : ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي (٦٦١ - ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، (٣٧ مج)، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن القاسم العاصمي النجدي الحنبلي، وابنه محمد، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب. الجزء الثالث عشر ص ٢٨٤. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن تيمية، الفتاوى.

لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله»^(١١٦)، وقال سبحانه : هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق»^(١١٧)، وما دام تأويل هذه الآيات لم يقع بعد، فهو إذن ما زال في حكم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، قال تعالى : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١١٨)، وقال سبحانه : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١١٩)، وقال تبارك : ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(١٢٠)، وقال عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾^(١٢١) . . . وهكذا يستحيل على أحد من الخلق معرفة تأويل هذا النوع من الآيات، ويحرم الخوض فيها، ويبدو أن هذا ما عناه الرسول (ﷺ) بقوله الشريف : «جِدَالُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ»^(١٢٢)، وما قصده ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما بالتفسير الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك حين قَسَمَ التفسير إلى أربعة وجوه : وجه لا يسع أحد بجهله ولا يُعَذَّرُ بجهالته من حلال أو حرام، ووجه تعرفه العرب بلغتها، ووجه تعرفه العلماء، ووجه لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ادَّعى علمه فهو كاذب.^(١٢٣)

وهكذا حصر الفريق الأول المشكلة فيما يمكن أن نطلق عليه «متشابه السمعيات»، وقرر استحالة معرفة تأويلها، بناء على أنها من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأن الله تعالى قد أكد أن تأويلها لم يأت بعد.

(١١٦) سورة يونس/٣٩.

(١١٧) سورة الأعراف/٥٣.

(١١٨) سورة النمل/٦٥.

(١١٩) سورة الأنعام/٥٩.

(١٢٠) سورة الجن/٢٦.

(١٢١) سورة آل عمران/١٧٩.

(١٢٢) الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي البغدادي (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، مسنده. القاهرة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م (ج٦)، الجزء الثاني، صفحات ٢٥٨، ٤٧٨، ٤٩٤، وسيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الإمام أحمد، مسنده.

(١٢٣) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٢/٧، الشوكاني، فتح القدير ٣١٩/١.

أما الفريق الآخر فقد نظر الى المتشابه بوصفه قضايا عقلية فنية أسلوبية في آيات يمكن حل الاشتباه المثار فيها عن طريق البحث والتمحيص بواسطة أدوات الدراسة التفسيرية المتاحة التي تحقق المعنى الأصيل فيها، وتدرأ عنها شبه الالتباس. وفي ذلك يقول ابن عطية: «المتشابهات هي التي فيها نظر، وتحتاج الى تأويل، ويظهر فيها بباديء النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل»^(١٢٤). ويرى الفخر الرازي أن المتشابه هو المجمال المتساوي أو المؤول المرجوح، وذلك بناء على أن اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى إما أن يكون محتملاً لغير ذلك المعنى أم لا، فإذا لم يكن محتملاً لغير ذلك فهو المحكم، وإن كان محتملاً لغير ذلك المعنى فإما أن يكون احتماله راجحاً على المعنى الأصلي، أو مرجوحاً، أو يكون احتماله لهما على السواء والراجع هو الظاهر، والمرجوح هو المؤول، وما كان على السواء فهو المشترك. ويكون المحكم هو النص والظاهر، والمتشابه هو المجمال المتساوي أو المؤول المرجوح.^(١٢٥) وقال الأصم: «المتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل نحو الحكم بأنه تعالى يبعثهم بعد أن صاروا تراباً، ولو تأملوا، لصار المتشابه عندهم محكماً، لأن من قدر على الإنشاء أولاً قادر على الإعادة ثانياً»^(١٢٦). وقال القاضي عبد الجبار:

«فالمحكم ما أحكم المراد بظاهره، والمتشابه ما لم يحكم المراد بظاهره، بل يحتاج في ذلك إلى قرينة إما عقلية أو سمعية. والسمعية إما أن تكون في هذه الآية - إما في أولها أو في آخرها - أو في آية أخرى من هذه السورة، أو من سورة أخرى، أو في سنة الرسول (ﷺ) من قول أو فعل، أو في إجماع الأمة».^(١٢٧) ورأى محمد بن جعفر بن الزبير أن المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد، والمتشابه ما احتمل من التأويل عديداً من الأوجه^(١٢٨). ورأى ابن الأنباري أن المتشابه هو ما تعتوره

(١٢٤) ابن عطية، المحرر الوجيز ١٥/٣.

(١٢٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨١/٧ - ١٨٤.

(١٢٦) المصدر السابق ١٨٤/٧.

(١٢٧) القاضي عماد الدين عبد الجبار بن أحمد الهمداني المعتزلي (ت ٤١٥هـ). شرح الأصول الخمسة تحقيق دكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م، ص ٦٠٠ وسيشار الى هذا المصدر عنه وروده فيما بعد هكذا: القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة.

(١٢٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥/٢، ابن عطية، المحرر الوجيز ١٦/٣، القرطبي، الجامعة لأحكام القرآن ١١-١٠/٤.

التأويلات. (١٢٩) واختار النحاس أن المحكم ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه الى غيره، والمتشابه ما لا يعرف معناه إلا برده إلى أصله المحكم. (١٣٠)

وهكذا أوضحت تلك الآراء أن المتشابه يمكن إخضاعه للبحث والدراسة، فهو عبارة عن قضايا علمية تحتاج في معرفتها إلى التأمل والتدبر، ولعل مما يعزز هذه الفكرة اتفاق كل من ابن عباس وابن مسعود وقتادة والسدي والربيع والضحاك وعكرمة على أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ، (١٣١) وكذلك رأى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أن المحكم هو اليقين الذي لا خلاف على ألفاظه ومعانيه، والمتشابه هو الذي تكرر فجأة مرة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وجاء مرة أخرى باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني (١٣٢). فإذا كان المتشابه هو ما خفى من المنسوخ، أو ما تكرر في صور مختلفة ومتفقة من الألفاظ والمعاني والتعبيرات، أو هو أحد الأوجه التأويلية المتعددة المحتملة، أو هو الذي يمكن إرجاعه إلى أصله المحكم، أو هو ما يحتاج إلى قرينه عقلية أو نصية سمعية، فكل ذلك وما أشبهه يتأق بالبحث والدراسة، إذ يمكن التوصل إلى الناسخ، والاهتداء إلى العامل المشترك بين ما جاء مكرراً لفظاً أو معنى، واختيار الوجه التأويلي الصحيح الذي يتفق مع روح الدين وخصائص الأساليب العربية الفنية، والكشف عن القرينة العقلية أو النص الذي يثبت الوجه المحكم...

أما بالنسبة إلى متشابه السمعيات، فالواقع أن هذه الآيات التي تتناول موضوعات

(١٢٩) ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥١/١.

(١٣٠) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١/٤، الشوكاني، فتح القدير ٣١٤/١.

(١٣١) الطبري، جامع البيان ١٧٢/٣ - ١٧٣، ١٧٧، القرطبي، الجامعة لأحكام القرآن ١٠/٤، ابن عطية، المحرر الوجيز ١٦/٣، الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٤/٧، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥١/١، السيوطي، الاتقان ٥/٣، الشوكاني، فتح القدير ٣١٤/١، البغوي، ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ)، صاحب «مصاييح السنة»، معالم التنزيل، مطبوع على هامش تفسير الخازن، علاء الدين أبوالحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي الحلبي البغدادي الشهير بالخازن (٦٧٨ - ٧٤١هـ)، المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل»، طبعة دار الفكر ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، الجزء الأول ص ٣٢٠. وسيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البغوي، معالم التنزيل.

(١٣٢) الطبري، جامع البيان ١٧٤/٣، ابن الجوزي، زاد المسير ٣٥١/١. وانظر أيضاً: ابن عطية، المحرر الوجيز ١٧/٣.

غيبية لها مستويان من التأويل : يفيد الأول دلالة بسيطة واضحة ، لا تعقيد فيها ولا غموض ، تتسق مع روح الدين وآدابه وعقائده ، ومع أصول اللغة وأساليب التعبير الفني فيها . بينما يفيد الآخر دلالة مطابقة للحقيقة التي خلقها الله سبحانه عليها . والمستوى الأول هو المستوى المطلوب التوصل إليه لاستكمال فهم القرآن الكريم ككل بوصفه كتاباً إلهياً أنزل من أجل هداية الناس ، فوجب عليهم استشراحه وفهمه من أجل العمل به . وهذا المستوى لا يتعذر التوصل إليه وتحقيقه عن طريق البحث والدراسة والتمحيص ، أما المستوى الآخر فهو الذي اختص الله تعالى بعلمه ، ولم يأت تأويله بعد كما أكد القرآن الكريم . وَأَحْسَبُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِإمكان معرفة تأويل المتشابه نظروا الى المستوى التأويلي الأول ، وَأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا باستحالة هذه المعرفة نظروا الى المستوى التأويلي الثاني .

ولنضرب لذلك مثلاً من آيات الذات والصفات ، وهي الآيات التي يوحى ظاهرها بنسبة بعض الصفات المادية الحسية لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً شديداً ، مثل الوجه (١٣٣) ، والعين (١٣٤) واليد (١٣٥) ، والساق (١٣٦) ، والجنب (١٣٧) وكذلك الاستواء على العرش (١٣٨) ، وأنه ينزل الرسالات والمطر وغير ذلك (١٣٩) ، والنظر

(١٣٣) انظر : سورة البقرة/١١٥ ، ٢٧٢ ، سورة الرعد/٢٢ ، سورة الروم/٣٨ ، ٣٩ ، سورة الرحمن/٢٧ ، سورة الانسان/٩ ، سورة الليل/٢٠ ، سورة الأنعام/٥٢ ، سورة الكهف/٢٨ ، سورة القصص/٨٨ .

(١٣٤) انظر : سورة طه/٣٩ ، سورة هود/٣٧ ، سورة الطور/٤٨ ، سورة القمر/١٤ .

(١٣٥) انظر : سورة آل عمران/٢٦ ، ٧٣ ، سورة الحديد/٢٩ ، سورة الفتح/١٠ ، سورة الملك/١ ، سورة يس/٨٣ ، سورة ص/٧٥ ، سورة الزمر/٦٧ ، سورة الأنعام/٧١ ، سورة الذاريات/٤٧ ، سورة المائدة/٦٤ .

(١٣٦) انظر : سورة القلم/٤٢ .

(١٣٧) انظر : سورة الزمر/٥٦ .

(١٣٨) انظر : سورة طه/٥ .

(١٣٩) آيات النزول في القرآن كثيرة جداً تزيد على المائتين والخمسين آية .

إليه^(١٤٠)، والحركة^(١٤١)، والمجيء^(١٤٢)، والايقان^(١٤٣)، والفوقية^(١٤٤)، والمعية^(١٤٥)، والبصر^(١٤٦)، والسمع^(١٤٧)، والكلام^(١٤٨)، وكذلك بعض الصفات النفسية مثل الغضب^(١٤٩)، والرضا^(١٥٠)، والحب^(١٥١)، والكراهة^(١٥٢)، والرحمة^(١٥٣)، والبطش^(١٥٤)، والمكر^(١٥٥)، والاستهزاء^(١٥٦).

(١٤٠) انظر : سورة القيامة/٢٣.

(١٤١) انظر : سورة الرحمن/٣١.

(١٤٢) انظر : سورة الفجر/٢٢.

(١٤٣) انظر : سورة الأنعام/١٥٨.

(١٤٤) انظر : سورة الأنعام/١٨، ٦١، سورة الأعراف/١٢٧.

(١٤٥) انظر : سورة الحديد/٤، سورة المجادلة/٧، سورة الأنفال/١٢، سورة طه/٤٦، سورة المائدة/١٢، سورة التوبة/٤٠، سورة الشعراء/٦٢، سورة العنكبوت/٦٩، سورة النحل/١٢٨، سورة البقرة/١٥٣، ١٩٤.

(١٤٦) انظر : سورة التوبة/٩٤، ١٠٥، سورة المعارج/٧، سورة طه/٤٦. ومن أسماء الله الحسنى «البصير»، وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن أكثر من ثلاثين مرة.

(١٤٧) انظر : سورة آل عمران/١٨١، سورة المجادلة/١، سورة الزخرف/٨٠، سورة طه/٤٦. ومن أسماء الله الحسنى «السميع»، وقد ورد هذا الاسم الكريم في القرآن أكثر من أربعين مرة.

(١٤٨) انظر : سورة البقرة/٧٥، ٢٥٣، سورة آل عمران/٧٧، سورة النساء/٦٤، سورة الأعراف/١٤٣، ١٤٤، سورة التوبة/٦.

(١٤٩) انظر : سورة النساء/٩٣، سورة المائدة/٦٠، سورة الفتح/٦، سورة المجادلة/١٤، سورة الممتحنة/١٣، سورة طه/٨١.

(١٥٠) انظر : سورة المائدة/٣، ١١٩، سورة التوبة/١٠٠، سورة المجادلة/٢٢، سورة البينة/٨.

(١٥١) انظر : سورة آل عمران/٣١، ١٣٤، ١٤٦، ١٤٨.

(١٥٢) انظر سورة التوبة/٤٦.

(١٥٣) انظر : سورة العنكبوت/٢١، سورة الاسراء/٥٤، سورة التوبة/٧١، ومن أسماء الله الحسنى «الرحمن» الذي ورد في القرآن سبعاً وخمسين مرة، و«الرحيم» وقد ورد في القرآن خمساً وتسعين مرة. والآيات التي تتحدث عن رحمة الله عديدة جداً في القرآن الكريم.

(١٥٤) انظر : سورة الدخان/١٦، سورة البروج/١٢، سورة القمر/٣٦، سورة الأعراف/١٣٦، سورة الحجر/٧٩، سورة المائدة/٩٥، سورة آل عمران/٤، سورة ابراهيم/٤٧، سورة الزمر/٣٧، سورة السجدة/٢٢، سورة الروم/٤٧، سورة الزخرف/٢٥، ٤١، ٥٥.

(١٥٥) انظر : سورة آل عمران/٥٤، سورة الرعد/٤٢، سورة النمل/٥٠، سورة الأنفال/٣٠، سورة الأعراف/٩٩، سورة يونس/٢١.

(١٥٦) انظر : سورة البقرة/١٥.

إنَّ ظاهر هذه الآيات يوحى بالتشبيه والتجسيم، وهذه هي المشكلة، خاصة وأنَّ هناك في المقابل آيات آخر تتحدث عن التنزيه المطلق، مثل قوله تعالى : «لا تدركه الأبصار»^(١٥٧)، وقوله سبحانه : ﴿ليس كمثله شيء﴾^(١٥٨)، وقوله تبارك : ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾^(١٥٩)...

إنَّ المستوى التأويلي الأول لآيات الذات والصفات ينصرف إلى إثبات الصفات لله تعالى ولكن دون تشبيه أو تجسيم أو تعطيل. كما أن أساليب التعبير الفني الذي تعرفه العربية تساعد على إمكان تأويل هذه الآيات بما يتفق مع خصائصها ولا يتعارض مع روح الدين وآدابه وعقائده، إذ يمكن تأويل الوجه بالذات، والعين بالرعاية والحفظ، واليد بالقوة أو القدرة أو الخير، والساق بالشدة والكرب والأمر العظيم، والجانب بالحق والطاقة، والاستواء بالهيمنة، والنزول باستجابة الدعاء ومنح النفحات، والمجيء بمجيء الأمر، والمعية بالعلم والرزق والتدبير، أو النصرة والتأييد والمعونة والحفظ والرعاية والرحمة... وهكذا.

أما المستوى التأويلي الثاني لهذه الآيات، فهو الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ولا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

وهكذا تكون معالجة الآيات المتشابهة، وهكذا يمكن التوصل إلى معرفة تأويلها على المستوى الأول، فهي آيات وإن سميت مشكلة فما كان ذلك إلا لأنها دخلت في شكل غيرها، ومن الممكن تمييزها وتوضيحها بالبحث والدراسة.

(١٥٧) سورة الأنعام/١٠٣.

(١٥٨) سورة الشورى/١١.

(١٥٩) سورة الاخلاص/٤.

لقد أنزل الله تعالى كتابه الكريم لهداية الناس وإرشادهم الى طريق الحق والخير والفلاح، وأمرهم بتدبره والتفكر فيه، ولا يتحقق الغرض الأساسي من التنزيل إذا كان فيه ما لا سبيل الى معرفته وفهمه على المستوى التأويلي الأول الذي أوضحناه آنفاً، «وما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيمن أنزلت، وماذا عني بها»، كما يقول الحسن البصري^(١٦٠)، و«لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق الى معرفته»، كما يقول النووي^(١٦١)، ولأنه «لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الأمة لا يعلمون معناه» كما يقول ابن تيمية^(١٦٢). والله تعالى لم ينف أن نعلم تأويل المتشابه - على المستوى التأويلي الأول - قال جلّ جلاله : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾^(١٦٣).

ولقد أشرنا - من قبل - إلى إمكان رد المتشابه الى المحكم، وهذا عمل الراسخين في العلم وجهدهم في البحث والتمحيص، ولذلك فإنهم لم يقولوا : «آمنّا به كل من عند ربنا»، إلا لأنهم عرفوا الرابط الذي يربط المتشابه بالمحكم، ووقفوا على الأصل المحكم الذي يعود إليه الوجه المتشابه، ومعنى هذا أنهم - من جهة - عرفوا المستوى التأويلي الأول للمتشابه، كما أنهم - من جهة أخرى - توصلوا الى الدليل الذي يثبت أن المحكم والمتشابه من أصل إلهي واحد، نظراً لتمكّنهم من ردّ المتشابه إلى المحكم، ونفى التعارض الظاهري بينهما، فأمنوا بهما معاً، ولذا مدحهم الله تعالى فوصفهم بالرسوخ في العلم، وميّزهم بهذا الوصف، بينما ذم مشيري التشابه ووصف بأن في قلوبهم زيغ، أي ميل عن الحق وقصد الى الضلال والغواية. والبون شاسع بين هذين الوصفين، على الرغم من أن الباب الذي دخل منه الجميع واحد وهو باب التأويل، ولكن الراسخين في العلم كان هدفهم من التأويل كشف الشبه وإحقاق الحق، بينما هدّفت الذين في قلوبهم

(١٦٠) ابن تيمية، الفتاوى ١٣/١٤٤.

(١٦١) الإمام مسلم بن الحجاج القشيري (٢٠٦ - ٢٦١هـ)، الصحيح، بشرح النووي، محي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن حزام بن محمد بن جمعة النووي الشافعي (٦٣١ - ٦٧٦هـ)، المطبعة المصرية ١٣٤٩هـ، الجزء السادس عشر، ص ٢١٨. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الإمام مسلم، صحيحه بشرح النووي.

(١٦٢) الإمام محمد عبده، تفسير المنار ٣/١٧٥.

(١٦٣) سورة البقرة/٢٥٥.

زيغ إلى إضرار نار الفتنة، لذلك جعلوا تأويلهم موافقاً لمذاهبهم الفاسدة، وأهوائهم ورغباتهم الشخصية، ليس في كتاب الله عليه دليل ولا بيان، بل اتبعوا فيه خطوات الشيطان، كما فعل ابن الراوندي - أحمد بن يحيى بن اسحاق أبو الحسين (ت ٢٨٩هـ) - في «دَامِغِهِ» الذي جاهر فيه بالإلحاد، وصنفه لابن لاوي اليهودي بالأهواز^(١٦٥). وذلك بخلاف الراسخين في العلم الذين جعلوا تأويلهم وفق روح الدين، وفي إطاره، وعلى ضوئه، وطلبوا الهداية من الله، ويدل على ذلك دعاؤهم بعد شهادتهم، قال تعالى : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ * ربنا لا ترزق قلوبنا بعد إذ هديتنا وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴿١٦٦﴾. فقد شهدوا أن التشابه يرجع إلى المحكم، وأن التشابه والمحكم كلاهما من عند الله، ثم تضرعوا الى الله أن يُثَبِّت قلوبهم على هذه الهداية بعد أن هداهم اليها، وألا يزغ قلوبهم عنها بعد أن طالعوا جمال وجه الحقيقة، وهكذا خضعوا لبارئهم لاستئصال العلم اللدني بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفساني.

لذا فإننا نعوذ بجناب الله العظيم أن نكون من أولئك الذين ضرب الله عليهم حجاباً يحجب قلوبهم عن فهم القرآن، وجعل على قلوبهم غشاء سميكاً، وفي آذانهم صمماً ثقيلاً، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿١٦٧﴾، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل العلم والإيمان الذين يمكنهم الوقوف على تأويل التشابه، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿١٦٨﴾، فلقد عرف أهل العلم والإيمان تأويل الآيات التي وردت في كتاب الله متعلقة بمسائل غيبية كالموت والبعث،

(١٦٤) سورة آل عمران/٧.

(١٦٥) وهكذا يلحظ اليهود وأعداء الاسلام في إثارة التشابه.

(١٦٦) سورة آل عمران/٧-٨.

(١٦٧) سورة الإسراء/٤٥-٤٦.

(١٦٨) سورة الروم/٥٥-٥٦.

ولذا شَرَّفهم الله تعالى بالردِّ على المجرمين الذين أنكروا ذلك وجهلوه، كما مدح الله أهل العلم والإيمان ووعدهم حُسن الثواب، وذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. (١٦٩)

لقد قَسَمَ الله تعالى قلوب الخلق إلى ثلاثة أقسام : قلوب مريضة، وقلوب قاسية، وقلوب مخبئة، فأما القلوب المريضة فهي قلوب المنافقين والملاحدة والكفار والزنادقة وأهل البدع والأهواء، الذين وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾ (١٧٠)، وهم الذين يريدون الطعن في الكتاب، واللبس على العقيدة، حتى يفسدوا ذات بين المسلمين. وهم أيضاً الذين يتركون المحكمات من آيات الكتاب وراء ظهورهم، ويشيرون التشابهات بوسوسة من الشيطان، ليضرموها ناراً للفتنة لا تُبقي ولا تذر. وأما القلوب القاسية فهي قلوب الجهال المعاندين المستكبرين، وهي قلوب لا يمكن أن تعرف حقاً أو أن يمسه إيمان. وأما القلوب المخبئة، فهي القلوب التي اهتدت بالايان ورسخت بالعلم، قلوب أهل العلم والايان، الذين يمكنهم التوصل الى معنى الايمان الحقيقي والمعرفة الصحيحة، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾. (١٧١)

والله سبحانه وتعالى إنما ذم أصحاب القلوب المريضة، لأن هذا الزيغ الذي في قلوبهم يجعلهم يتبعون التشابهات قبل أن يفهموا المحكمات أم الكتاب، بل إنهم يتغافلون عنها، ولم تشر الآية السابعة من سورة آل عمران إلى وجود أي علاقة لهم بالمحكمات، ولذا فإنهم يضلوا، لأن صنيعهم هذا عكس المعقول والمعتاد والمشروع، والسبب في ذلك غرضهم الخبيث الذي يسعون إليه، وهو إضرار نار الفتنة، ومثلهم في إثارة التشابه ابتغاء الفتنة مثل المشركين الذين كانوا يقترحون على أنبيائهم الإتيان بآيات غير الآيات التي جاءوا بها، ظناً منهم أنهم لو جاءتهم آيات أخر لآمنوا عندها، جهلاً منهم وصفاقة، وما علموا أن الله مُطَّلِعٌ على ما يخفونه في قلوبهم المريضة، وأنه

(١٦٩) سورة المجادلة/١١.

(١٧٠) سورة آل عمران/٧.

(١٧١) سورة الحج/٥٣-٥٤.

فاضحهم، وأنه لا يبدل القول لديه، وما أدركوا أنه «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً». (١٧٢)

والأمثلة التي تعزز صحة ما نميل إليه كثيرة، فلقد أصاب الذين قالوا إنَّ المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ، وذلك من حيث أنَّ النسخ يقع في اللبس والخطأ. ولقد أقاموا قولهم هذا على أساس ما فهموه من التقابل بين النسخ والإحكام في قوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾. (١٧٣) كما أن النواسخ لما كانت هي المثبتات للأحكام الشرعية التي طلب الشارع الخضوع لها والعمل بها، وصرف النظر عن المنسوخ الذي جاء بنسخه، فإنَّ الناسخ يمكن أن يسمى مُحكماً، على أساس أنه هو الحكمُ الثابت الباقي، والعرب تسمي البناء الوثيق مُحكماً، وتسمي العقد الوثيق الذي لا يمكن حله مُحكماً. وفي المقابل يمكن أن يسمى المنسوخ متشابهاً، وذلك على أساس أنه المحكم في التلاوة ولكنه يخالف في ثبوت الحكم، ومن هنا يشتبه على التالي حُكمه من ثبوته ونسخه. (١٧٤)

ولقد اشتبه على قدامة بن مظعون قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ (١٧٥)، فَظَنَّ قدامة أنه يباح له شرب الخمر على اعتبار أنه من الصحابة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وشهد مع الرسول (ﷺ) غزواته وكافح معه. وبهذا وقع قدامة في التشابه، لأن هذه الآية - كما بين ابن عباس - أنزلت عذراً للماضين وحُجَّةً على الباقين، (١٧٦) والماضون هم المسلمون الأوائل الذين كانوا يشربون الخمر قبل أن ينزل تحريمها، ثم ماتوا على ذلك، فسأل الصحابة رسول الله (ﷺ) عن موقفهم، فنزلت هذه الآية عذراً لهم لأنهم لم يعيشوا حتى ينزل تحريمها. أما الباقون - إلى يوم القيامة - فهم الذين خاطبهم الله سبحانه بقوله: ﴿يا أيها الذين

(١٧٢) سورة النساء/٨٢.

(١٧٣) سورة الحج/٥٢.

(١٧٤) الجصاص، أحكام القرآن ٣/٢.

(١٧٥) سورة المائدة/٩٣.

(١٧٦) الطبري، جامع البيان ٣٧/٧ - ٣٨.

آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴿١٧٧﴾.

وأما رأي ابن زيد، فإن الآيات التي تكررت بصورة أو بأخرى معني أو لفظاً تعد متشابهة إذا جاءت مختلفة في هذا التكرار، بعكس ما إذا جاءت متفقة فإنها تعد حينئذ مُحكمة، وذلك لأن هذا الاختلاف قد يشبهه معناه على البعض ويلتبس عليهم وجه الحكمة منه. ومن ذلك مثلاً ما ورد في قصة نوح وموسى عليهما السلام التي تكررت كثيراً في القرآن، فجاء في آية عن سفينة نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿فأسلك فيها﴾^(١٧٨)، بينما جاء في آية أخرى: ﴿احمل فيها﴾^(١٧٩). وفي قصة موسى عليه السلام جاء في آية: ﴿اسلك يدك﴾^(١٨٠)، وفي أخرى: ﴿وأدخل يدك﴾^(١٨١)، وجاء في آية ﴿حية تسعى﴾^(١٨٢)، وفي ثانية ﴿ثعبان مبين﴾^(١٨٣)، وفي ثالثة ﴿كأنها جان﴾^(١٨٤)... فهذه الاختلافات قد توقع في التشابه، لكن الدراسة تكشف تلك الاختلافات، وتردها الى أصل مُحكم، ففي اللغة: سلك الشيء في الشيء فانسلك، أي أدخله فيها فدخل. والجان هو الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها. وهكذا يمكن حلّ الاشتباه في كثير من الآيات عن طريق الدراسة والبحث.

ونخرج من ذلك بأنّ التشابه ينقسم الى قسمين :

أ - متشابه السمعيات : وهو ما يتعلق بالآيات الغيبية، مثل آيات الذات والصفات، والآيات التي تتحدث عن الروح، وعلامات الساعة، وبعض مشاهد البعث

(١٧٧) سورة المائدة/٩٠.

(١٧٨) سورة المؤمنون/٢٧.

(١٧٩) سورة هود/٤٠.

(١٨٠) سورة القصص/٣٢.

(١٨١) سورة النمل/١٢.

(١٨٢) سورة طه/٢٠.

(١٨٣) سورة الأعراف/١٠٧، سورة الشعراء/٢٣.

(١٨٤) سورة النمل/١٠، سورة القصص/٣١.

والقيامة. وهذه الآيات - كما قررنا سابقاً - لها مستويان من التفسير : مستوى يمكن للراسخين من العلم التوصل اليه، ومستوى لا يعلمه إلا الله تعالى.

ب - متشابه الفَنَيَات أو الأسْلُوبيَّات : وهي آيات يقع التشابه فيما يتعلق بها من أوجه فنية وأسلوبية، يمكن إزالة اللبس الواقع فيها بالدراسة والتحري عن طريق استخدام أدوات البحث العلمي المتاحة، والاستعانة بالدراسات العربية والاسلامية من لغة وبلاغة وأسباب نزول وقراءات ونسخ وغير ذلك، وهذا ما عناه الضحَّاك بقوله : «الراسخون في العلم يعلمون تأويله، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، ولا مُحْكَمه من متشابهه»^(١٨٥). فأشار هنا إلى كشف متشابه العقليات عن طريق تمييزة بما يكون فيه من نسخ، أو كان له أصل شرعي في الحلال والحرام.

وهذا التقسيم اجتهاد من مبني على طبيعة موضوعات المُحْكَم والمتشابه وهناك تقسيمات أخرى للمُحْكَم والمتشابه من ناحية اللفظ قام بها علماء عديدون خاصة الأصوليين منهم، وسوف نفرّد ذلك الأمر ببحث آخر إن شاء الله تعالى.

والأمثلة على ذلك كثيرة :

فمن لا يعرف النحو العربي يشته عليه قوله تعالى : ﴿أَن الله بريء من المشركين ورسوله﴾^(١٨٦)، فيظن خطأ أن الله بريء من الرسول - تعالى الله عن ذلك علواً شديداً - والواقع أن قوله «ورسوله» وَرَدَّ في قراءة الجمهور بالرفع، وذلك عطفاً على الموضع أو على المضمّر المرفوع في «بريء»، أو على اعتبار أنه مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، والتقدير : «ورسوله. بريء منهم». وهناك قراءة لها بالنصب عطفاً على اسم الجلالة. بل جاءت في الشواذ بالخفض على القسم، بمعنى : وَحَقَّ رسوله.

وفي قوله تعالى : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾^(١٨٧)،

(١٨٥) السيوطي، الاتقان ٦/٣.

(١٨٦) سورة التوبة/٣.

(١٨٧) سورة التوبة/٤١.

وقوله تعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾^(١٨٨)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين حيث تأمر الأولى جميع المسلمين بالجهاد على كل حال، بينما تنفي الثانية وجوب ذلك على الجميع، بل تستثني بعض المسلمين من ذلك. والحقيقة أنه لا تعارض بينهما، لأن الجهاد مأمور به الجميع، أما الاستثناء في الآية الثانية فهو رخصة للعلماء والباحثين يتضح من تمام الآية، حيث يقول تعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. فالاستثناء إذن في هذه الآية رخصة، ويُفهم أن الاسلام بريء أن الجهاد يكون بالقتال وبالعلم والدعوة وبغير ذلك. وتشبه هذه المسألة مسألة الأمر بالصلاة قياماً، وذلك في قوله تعالى : ﴿وقوموا لله قانتين﴾^(١٨٩)، مع وجود الرخصة بالقعود والاستلقاء للمرضى، وكذلك الأمر بالوضوء للصلاة مع وجود رخصة التيمم . . . وغير ذلك.

وقريب هذا من قوله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة : ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾^(١٩٠)، وذلك في مقابل قوله تعالى على السنة الكفار يوم القيامة : «فألقوا السلم ما كنّا نعمل من سوء»^(١٩١)، وقوله تعالى : ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾^(١٩٢)، وقوله تعالى : ﴿والله ربنا ما كنّا مشركين﴾^(١٩٣). فإنه يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآية الأولى والآيات الثلاث بعدها. والحقيقة أنه لا تعارض، لأن الآيات الثلاث تصوّر اضطراب حال الكفار والمجرمين يوم القيامة من شدة رعبهم وفزعهم، فهم يتخبطون في أقوالهم أملاً في الخلاص والنجاة، فتارة يكذبون كما في هذه الآيات، وتارة أخرى يعترفون كما قال تعالى في سورة المدثر على لسانهم : ﴿قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين﴾^(١٩٤)،

(١٨٨) سورة التوبة/١٢٢.

(١٨٩) سورة البقرة/٢٣٨.

(١٩٠) سورة النساء/٤٢.

(١٩١) سورة النحل/٢٨.

(١٩٢) سورة غافر/٧٤.

(١٩٣) سورة الأنعام/٢٣.

(١٩٤) سورة المدثر/٤٣-٤٦.

وقوله تعالى : ﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾^(١٩٥)، وقوله تعالى : ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾^(١٩٦)، وغير ذلك آيات كثيرة. أما الآية الأولى التي ورد فيها أنهم لا يكتُمون الله حديثاً. فيفسرها أن ذلك يحدث حين تشهد عليهم أرجلهم وأيديهم بما كانوا يقترفون بعد أن كذبت ألسنتهم، قال تعالى : ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾^(١٩٧).

وفي قوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَّتْ قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾^(١٩٨). وقوله تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(١٩٩)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين من حيث وجود المنافاة بين وجل القلوب في الآية الأولى واطمئنانها في الآية الثانية وذلك في مقام واحد وهو مقام ذكر الله. ولكن هذه المنافاة ليست حقيقية، لأن الوصفين بالوجل والاطمئنان ملازمان للمؤمنين، فهم حين يذكر الله يخشون أن يكونوا قد قصّروا، وهنا تكون قلوبهم وجلة، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾^(٢٠٠). فإذا ما استمعوا إلى الفرقان وهو يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، استقرت قلوبهم وهدأت واطمأنت إلى وعد الله بالثوبة. كما يلاحظ أن كلتا الآيتين ورد فيهما الاطمئنان وزيادة الإيمان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فجاء في الآية الأولى قوله تعالى : ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، وجاء في الآية الثانية قوله تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾، فلا منافاة إذن بينهما.

وفي قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك

(١٩٥) سورة الملك/١١.

(١٩٦) سورة الأنعام/١١.

(١٩٧) سورة يس/٦٥.

(١٩٨) سورة الأنفال/٢.

(١٩٩) سورة الرعد/٢٨.

(٢٠٠) سورة المؤمنون/٦٠.

الحق^(٢٠١)، وقوله تعالى : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٢٠٢)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين من حيث إثبات أهلية ابن نوح ونفيها. والحقيقة أن لا تعارض، لأن نوحاً عليه السلام يقصد بالأهلية في كلامه أهلية النسب والقربى، أما الله تعالى فيتحدث عن أهلية العقيدة، وأهلية العقيدة - في الاسلام - مُقَدَّمة على أهلية النسب، ولذلك منع الله تعالى النبي (ﷺ) والمؤمنين أن يستغفروا لأقربائهم المشركين، قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قَرَبٍ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢٠٣)، وقال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٢٠٤).

وفي قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢٠٥)، وقوله تعالى : ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢٠٦)، أي : صاغرين أذلاء. يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين من حيث دخول الكافر النار عزيزاً كريماً كما جاء في الآية الأولى، وصاغراً ذليلاً كما جاء في الآية الثانية. والحقيقة أن لا تعارض، لأن الأسلوب في الآية الأولى أسلوب تهكم وسخرية، ويسمى في البلاغة العربية «تأكيد الذم بما يشبه المدح»، والعرب تعرف ذلك تستخدمه في شعرها، ومن قول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيته
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وفي قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾^(٢٠٧)، وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾^(٢٠٨)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين، فالآية الأولى

(٢٠١) سورة هود/٤٥.

(٢٠٢) سورة هود/٤٦.

(٢٠٣) سورة التوبة/١١٣.

(٢٠٤) سورة المجادلة/٢٢.

(٢٠٥) سورة الدخان/٤٩.

(٢٠٦) سورة غافر/٦٠.

(٢٠٧) سورة الحاقة/٢٥.

(٢٠٨) سورة الانشقاق/١٠.

تقرر أن الكافر سيأخذ كتابه يوم القيامة بشماله، بينما تقرر الآية الثانية أنه سيأخذه وراء ظهره. والحقيقة أن لا تعارض، وذلك لأن الكافر يوم القيامة تُغْلَى مِنَاهُ إلى عنقه، وتُجْعَلُ يُسْرَاهُ وراء ظهره فيأخذ بها كتابه. ومن ناحية أخرى، فإن أخذ الكتاب بالشمال كناية عن الشؤم ونحس المصير، فقد أدب الاسلام المؤمنين أن يأخذوا الطيبات باليد اليمنى والخبائث بالشمال، فيكون أخذ الكفار كتابهم بالشمال يوم القيامة كناية عما سيحل عليهم من شؤم، وما سيحقيق بهم من بش المصير.

وفي قوله تعالى: ﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾^(٢٠٩)، وقوله تعالى: ﴿وما كان ربك نسيا﴾^(٢١٠)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين، حيث تقرر الأولى أن الله ينسى - تعالى عن ذلك علواً شديداً - بينما تقرر الثانية أنه لا ينسى. والحقيقة أن لا تعارض. فهذا يدخل في باب من أبواب البلاغة يسمى باب «المقابلة» أو «المشاركة»، فليس المقصود من الآية الأولى أن الله ينسى شيئاً كما ينسى الناس، قال تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾^(٢١١)، بل المقصود أنه يجازي الكفار جزاء من جنس عملهم، أي جزاء مقابل له أو مشاكل، وقد تكرر هذا الأسلوب البلاغي في كثير من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم﴾^(٢١٢). وقوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾^(٢١٣)، وقوله تعالى: ﴿ينجأدون الله وهو خادعهم﴾^(٢١٤)، وقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(٢١٥). وهكذا تماثل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿نسأ الله فنسيهم﴾^(٢١٦)، كما تماثل أيضاً قوله تعالى: ﴿وقيل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾^(٢١٧).

(٢٠٩) سورة الأعراف/٥١.

(٢١٠) سورة مريم/٦٤.

(٢١١) سورة طه/٥٢.

(٢١٢) سورة البقرة/١٤ - ١٥.

(٢١٣) سورة آل عمران/٥٤.

(٢١٤) سورة النساء/١٤٢.

(٢١٥) سورة الشورى/٤٠.

(٢١٦) سورة التوبة/٦٧.

(٢١٧) سورة الجاثية/٣٤.

وفي قوله تعالى : ﴿ومكر السيء﴾^(٢١٨) وقوله تعالى : ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾^(٢١٩)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين الآيتين، من حيث أن الآية الأولى تدل على أن المكر غير السيء، وهما مضاف ومضاف إليه، بينما تدل الآية الثانية على أن المكر هو السيء بعينه. والحقيقة أن لا تعارض بين التركيبين، فمن الأساليب التي تعرفها العربية إضافة الشيء الى نفسه، أو الموصوف الى صفته، ومن ذلك أمثلة عديدة في القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى : ﴿شهر رمضان﴾^(٢٢٠)، وقوله تعالى : ﴿حبل الوريد﴾^(٢٢١)، فالشهر هو رمضان، والحبل هو الوريد. . . وفي الحديث النبوي : «لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»، والعرب تعرف ذلك، واستخدمته في أشعارها.

وفي قوله تعالى : ﴿ثم محلها الى البيت العتيق﴾^(٢٢٢)، يبدو للمشتبه أن المغيا هنا إن كان الزكاة، فكيف يغيا بـ «الى البيت العتيق»، ويكون محل ذكاتها الى البيت العتيق، مع أن البيت لا يذكى فيه؟ ونفس هذا الاشتباه يبدو أيضاً في قوله تعالى : ﴿وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾^(٢٢٣)، فهو يوهم أنه ليس ملعوناً إذا جاء يوم الدين، فلم جيء بـ «إلى»؟ والحقيقة أن لا اشتباه، لأنه من المعروف في كلام العرب وفي أصول التفسير أن المغيا يشمل الغاية تارة ولا يشملها أخرى، ولقد ورد ذلك في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى : ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾^(٢٢٤)، فالمرافق - وهي الغاية - داخل في الغسل. وكذلك في قوله تعالى : ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾^(٢٢٥)، فالليل - وهو الغاية - لا يدخل في الصيام. وعلى هذا، فإن البيت العتيق نفسه لا يدخل في محل الزكاة، بينما يدخل يوم الدين في لعن إبليس.

(٢١٨) سورة فاطر/٤٣.

(٢١٩) سورة فاطر/٤٣.

(٢٢٠) سورة البقرة/١٨٥.

(٢٢١) سورة ق/١٦.

(٢٢٢) سورة الحج/٣٣.

(٢٢٣) سورة ص/٧٨.

(٢٢٤) سورة المائدة/٦.

(٢٢٥) سورة البقرة/١٨٧.

وفي قوله تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾^(٢٢٦)، يبدو للمشتبه أن الصواب أن يقال: أفمن لا يخلق كمن يخلق، وذلك على أساس أن المشتبه يكون دون المشتبه به، أو أن الأصل في التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى. والحقيقة أن لا اشتباه، لأن في البلاغة العربية الأسلوبين: تشبيه الأدنى بالأعلى، وتشبيه الأعلى بالأدنى، وقد جاء الأسلوبان كلاهما في القرآن الكريم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾^(٢٢٧)، وقوله تعالى: ﴿أم نجعل المتقين كالفجار﴾^(٢٢٨)، وقوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾^(٢٢٩)، وغير ذلك. والعرب تعرف ذلك الأسلوب وتستخدمه، بل إن شاعرهم استأنس به في تشبيه مدوحه بمن هو أقل منه، واعتمد في ذلك على قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾^(٢٣٠).

فاستعان المتنبي بهذا الأسلوب في قوله:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس^(٢٣١)

ومن الأسلوب الثاني قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾^(٢٣٢).

وفي قوله تعالى: ﴿لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾^(٢٣٣)، يبدو للمشتبه أن نسيانهم حدث يوم القيامة، والحق أن لا اشتباه، فهذا من قبيل التقديم والتأخير، وتقدير العبارة - كما يقول عكرمة: ﴿لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا﴾^(٢٣٤). ومن

(٢٢٦) سورة النحل/١٧.

(٢٢٧) سورة القلم/٣٥.

(٢٢٨) سورة ص/٢٨.

(٢٢٩) سورة السجدة/١٨.

(٢٣٠) سورة النور/٣٥.

(٢٣١) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، ديوانه، تحقيق إيليا الحارثي، دار الكتاب اللبناني الطبعة الأولى ١٩٨١م ص ٣١٤. ويشير إلى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: أبو تمام، ديوانه.

(٢٣٢) سورة الجاثية/٢١.

(٢٣٣) سورة ص/٢٦.

(٢٣٤) الطبري، جامع البيان ٢٣/١٥٢.

ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ (٢٣٥)، فهذا أيضاً - كما يقول قتادة : «من تقاديم الكلام، يقول : لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً» (٢٣٦). ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ (٢٣٧)، قال ابن عباس : «جهرة أرنا الله»، أي أن سؤلهم كان جهرة (٢٣٨).

وفي قوله تعالى : ﴿وهذا البلد الأمين﴾ (٢٣٩)، وقوله تعالى : ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ (٢٤٠)، يبدو للمشتبه أن هناك تعارضاً بين هاتين الآيتين من حيث القسم في الآية الأولى وعدمه في الآية الثانية. والحقيقة أن لا تعارض، لأن هذا أسلوب خاص من أساليب القسم، وقد تكرر في مواضع عديدة في القرآن الكريم، وفي هذا الأسلوب تحيء «لا» للمبالغة في تأكيد القسم وتقويته، لأن عظمة المقسم به تضيف صفات التعميم والحسم على القسم ذاته، فإذا سبق المقسم به بأداة نفي أوقع هذا الرهبة في النفوس من غلظ القسم وشدته الفائقة. والعرب تعرف هذا الأسلوب. وورد في أشعارها، ومن ذلك قول امرئ القيس :

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر (٢٤١)

وكذلك من لا دراية له بالعربية جذورها ومفرداتها وعائلاتها اللغوية، يشبهه عليه قوله تعالى متحدثاً عن خلق آدم أنه كان ﴿من تراب﴾ (٢٤٢)، وقوله في آية ثانية : ﴿من

(٢٣٥) سورة طه/١٢٩.

(٢٣٦) السيوطي، الانتقان ٣/٣٨.

(٢٣٧) سورة النساء/١٥٣.

(٢٣٨) الطبري، جامع البيان ٨/٦، السيوطي، الانتقان ٣/٣٩.

(٢٣٩) سورة التين/٣.

(٢٤٠) سورة البلد/١.

(٢٤١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي (ت ٥٦٠م). شرح ديوان امرئ القيس مع أهم أخباره، راجعه وفهرسه محمد عبدالرحيم، دار الكتاب العربي، دمشق (د.ت)، ص ١٠٩. وسيشار إلى هذا المصدر عن روده فيما بعد هكذا : امرؤ القيس، ديوانه.

(٢٤٢) سورة آل عمران/٥٩.

حماً مسنون ﴿٢٤٣﴾، وقوله في آية ثالثة : ﴿من طين لازب﴾ ﴿٢٤٤﴾، وقوله في آية رابعة : ﴿من صلصال كالفخار﴾ ﴿٢٤٥﴾، والواقع أن كل هذه الألفاظ - بالرغم من اختلاف معانيها - ترجع الى جوهر واحد، هو التراب الذي تتدرج منه الى هذه الأحوال ﴿٢٤٦﴾.

وفي القرآن كثير من المشترك اللفظي قد يوقع البعض في التشابه، والمشارك اللفظي هو اللفظ المفرد الموضوع لمعانٍ متعددة مختلفة، مثل لفظ العين، فهو يدل على معانٍ منها : ينبوع الماء، والجاسوس، وشريف القوم... وغير ذلك، وقد يكون المشترك اللفظي موضوعاً لمعانٍ متقاربة : مثل لفظ العقل، فهو يدل على وقار الانسان وهيبته، أو على ما يكتسبه بالتجارب من الأحكام الكلية، أو على صحة الفطرة الأولى في الانسان، أو على قوة النفس العالمة أو العاملة، وغير ذلك. والمشارك اللفظي (Homonymie) يختلف عن الترادف (Synonyme) وهو المعنى الواحد الذي وضعت له ألفاظ متعددة.

وفي القرآن الكريم نجد كلمة الروح مثلاً لها أكثر من معنى، منها الأمر، وذلك في قوله تعالى : ﴿وروح منه﴾ ﴿٢٤٧﴾، ومنها الوحي، وذلك في قوله تعالى : ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ ﴿٢٤٨﴾، ومنها القرآن، وذلك في قوله تعالى : ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ ﴿٢٤٩﴾، ومنها الرحمة، وذلك في قوله تعالى : ﴿وأبدهم بروح منه﴾ ﴿٢٥٠﴾، ومنها الحياة، وذلك في قوله تعالى : ﴿فروح وريحان﴾ ﴿٢٥١﴾، ومنها جبريل عليه السلام، وذلك

(٢٤٣) سورة الحجر/٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٢٤٤) سورة الصافات/١١.

(٢٤٥) سورة الرحمن/١٤.

(٢٤٦) السيوطي، الاتقان/٣/٩٤.

(٢٤٧) سورة النساء/١٧١.

(٢٤٨) سورة النحل/٢.

(٢٤٩) سورة الشورى/٥٢.

(٢٥٠) سورة المجادلة/٢٢.

(٢٥١) سورة الواقعة/٨٩.

في قوله تعالى : ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾^(٢٥٢). وقوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢٥٣)، ومنها روح الحياة، في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^(٢٥٤).

ومنها كذلك كلمة «أُمَّة»، فقد جاءت في القرآن الكريم بمعان مختلفة، متعددة، منها، الإمام، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(٢٥٥)، ومنها الطائفة، في قوله تعالى : ﴿وَأَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢٥٦)، ومنها المدة، من قوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(٢٥٧)، ومنها الدين والملة، في قوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾^(٢٥٨).

ومن هذه الكلمات أيضاً كلمة اللسان، فقد وردت في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة، منها الجارحة المعروفة، كما في قوله تعالى : ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾^(٢٥٩)، ومنها اللغة، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾^(٢٦٠)، ومنها الثناء الحسن، كما في قوله تعالى : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾^(٢٦١).

والقرآن الكريم كذلك فيه عام وخاص، ومن لا يعرفهما يضل ويقع في الاشتباه، فقلوه تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾^(٢٦٢)، لا يعارض قوله تعالى : ﴿أَحَلَّ

(٢٥٢) سورة مريم/١٧.

(٢٥٣) سورة الشعراء/١٩٣.

(٢٥٤) سورة الإسراء/٨٥.

(٢٥٥) سورة النحل/١٢٠.

(٢٥٦) سورة فاطر/٢٤.

(٢٥٧) سورة يوسف/٤٥.

(٢٥٨) سورة الزخرف/٢٣.

(٢٥٩) سورة القيامة.

(٢٦٠) سورة إبراهيم/٤.

(٢٦١) سورة الشعراء/٨٤.

(٢٦٢) سورة المائدة/٣.

لكم ﴿٢٦٣﴾، بل تحريم الميتة عام، وإنما خصّ منه فقط السمك (صيد البحر) ﴿٢٦٤﴾، وكذلك فإن قوله تعالى : ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ﴿٢٦٥﴾، عام، وخصّ منه ما جاء في قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ ﴿٢٦٦﴾. . . الآية . وقوله تعالى : ﴿وَاحِلَ لَكُمْ مَا وراءَ ذَلِكَ﴾ ﴿٢٦٧﴾، عام، وخصّ منه : ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿٢٦٨﴾. وقوله تعالى : ﴿وَأْتَيْتُمُ لِحَادِهِنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ ﴿٢٦٩﴾، عام وقد خصصه الله في آية أخرى فقال : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا إِذَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ ﴿٢٧٠﴾. وغير ذلك .

ومن لا يعرف قضايا المجاز في القرآن يشبهه عليه الآيات التي جاء فيها المجاز بأنواعه، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ ﴿٢٧١﴾، وقوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ﴿٢٧٢﴾، وقوله تعالى : ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ ﴿٢٧٣﴾، وقوله تعالى : ﴿فَلْيَذْخُرُوا لِنَادِيهِ﴾ ﴿٢٧٤﴾. . . وهذا من باب المجاز العقلي بالحذف، والتقدير : اني أراني أعصر عنبا يصير خمرًا، وأسأل أهل القرية التي كنا فيها وأهل العير، وأشربوا في قلوبهم حب العجل بكفرهم، وفليدع أهل

(٢٦٣) سورة المائدة/٩٦.

(٢٦٤) هذا في القرآن، كما خصّ منه في السنة الجراد أيضاً.

(٢٦٥) سورة النساء/٣.

(٢٦٦) سورة النساء/٢٣.

(٢٦٧) سورة النساء/٢٤.

(٢٦٨) سورة النساء/٢٣.

(٢٦٩) سورة النساء/٢٠.

(٢٧٠) سورة البقرة/٢٢٩.

(٢٧١) سورة يوسف/٣٦.

(٢٧٢) سورة يوسف/٨٢.

(٢٧٣) سورة البقرة/٩٣.

(٢٧٤) سورة العلق/١٧.

ناديه . . . والعرب تعرف ذلك في لغتها. وجاء في كلامهم : بنو فلان تطوهم الطريق، وإنما يطوهم أهل الطريق.

وهكذا، فإنَّ الدربة بكتاب الله الكريم تزيل الاشتباه عن كثير من الآيات التي قد تكون منسوخة ولها ناسخ، أو تكون مجملة ولها مفصل، أو عامة ولها مخصص، أو من باب المشاكلة، أو المجاز، أو الاشتراك اللغوي . . . وغير ذلك، ويبدو أن الوقوف على تأويل ما يتشابه من ذلك هو مقصود النبي (ﷺ) حين دعا لابن عباس بقوله : «اللهم فقّه في الدين، وعلمه التأويل» (٢٧٥).

العوامل المؤثرة في إثارة التشابه وتكوينه في الذهن وتوجيهه

لقد عرفنا أنَّ شدة التماثل بين الشيئين قد تصل إلى حدِّ الاتحاد، ولكن هذا يكون في نظر الناظر، لا في واقع الأمر. وهذا معناه أنَّ إدراك التشابه إذن إدراك إضافي، أي تابع لاتجاه العقل واهتمامه، فالأشياء المتشابهة ليست أصلاً متطابقة ولا متكافئة تمام الانطباق والتكافؤ، ولم تنعدم الفروق المميزة بينها، بل هي تبدو متشابهة في إدراك الناظر إليها لأسباب وعوامل خاصة به هو ذاته. فيأتي الوقوع في التشابه من باب التداعي النفسي العرضي، لأن هذا التداعي - سواء في الأفكار أو الانفعالات أو الحركات أو الإدراكات الحسية أو الخبرات - ينشأ عن أسباب عديدة، منها التشابه، إذ يعد قانون التشابه (Loi de ressemblance) أحد القوانين الهامة التي تؤثر في عملية التداعي وتحكمه. وهناك أيضاً قانون الاهتمام (Loi d'intérêt)، لأنَّ خطور الأفكار بالذهن تابع للميول الغريزية والمكتسبة والعوامل اللاشعورية والمشاغل الحاضرة، ومن ثم يصطبغ التداعي الذي قام على التشابه باهتمام الشخص الذي اشتبهت عليه الأمور.

ومن جهة أخرى فإنَّ التشابه تخيل (Imagination) ولكنه تخيل وهمي، لأنه ينسخ أفكاراً ورؤى نسجاً خيالياً لا صلة له بالواقع، ولا بالوجود الحقيقي.

قال تعالى : ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ (٢٧٦)، إنَّ الآية تقصد بالتشابه هنا التشابه الناتج عن تخيل وهمي مجرد، فالاستفهام الإنكاري

(٢٧٥) السيوطي، الاتقان ٤/٢٣٤.

(٢٧٦) سورة الرعد/١٦.

التهمكي فيها يصور المشركين وهم ينظرون الى ما خلقه الله تعالى، والى ما خلقتهم، فيشتبه عليهم خلق الله بخلق آلهتهم، ولا يستطيعون التمييز بينهما. إن هذا محض خيال! فهلاً تخيلوا أن آلهتهم تملك مقدرة الخلق والايجاد من عدم وهي نفسها مصنوعة بأيديهم؟ وهلاً تخيلوا أنها خلقت فعلاً شيئاً من الأشياء؟ وهلاً تخيلوا بعد ذلك أن الخلق الذي خلقتهم يشبه تمام الشبه الخلق الذي خلقه الله تعالى؟ وهلاً تخيلوا أخيراً أنه لشدة التشابه بين خلق الله وخلق آلهتهم اختلط الخلق عليهم وألبس، ولم يستطيعوا التمييز بين الخلقين؟ إن ذلك محض تخيلات وهمية، لأن عجز آلهتهم المصنوعة عن الخلق، والعدم الناتج عن ذلك لا يساويان ولا يماثلان قدرة الله الهائلة غير المحدودة والوجود الفعلي لخلق الله البديع...

وهكذا يتضح أن العوامل التي تؤثر في إهاجة التشابه وتكوينه وتوجيهه وجهات معينة إنما هي عوامل نفسية، لذلك فإنه حين تحدث الله تعالى عن متبعي التشابه وصفهم بأنهم ﴿الذين في قلوبهم زيغ﴾^(٢٧٧) ولم يقل إنهم الذين في عقولهم زيغ، والسبب في ذلك أن الزيغ في اللغة : انحراف (Aberration) أي ميل عن الخط السوي وشذوذ، وعدول الى جانبه، فهو إذن خلل يعرض لبعض الوظائف النفسية فيعوقها عن أداء عملها الصحيح، وليس هذا الانحراف عقلياً، لأن المنحرف عقلياً يعد مجنوناً أو معتوهاً، فإذا انحرف العقل انحرافاً تاماً وزال كلياً حدث الجنون، وإذا كان الانحراف جزئياً حدث العتة، وكل من المجنون والمعتوه لا يُعْتَدُ بكلامه ولا بتصرفاته، بل يعد كلامه تحريفاً وهرطقة، وتُحْجَرُ على تصرفاته، وذلك لأنه فاقد للعقل كلياً أو جزئياً، والعقل مناطق التكاليف، وأساس المسؤولية والحساب. وعلى هذا فإن مثيري التشابه في القرآن الكريم يفعلون هذه المشكلات عن عمد وقصد، يدفعهم الى ذلك المرض النفسي الذي سكن في قلوبهم وهو الزيغ عن الحق والهدى، فهم أهل الشك وهم المنافقون^(٢٧٨)، لذلك فقدوا أهم أدوات البحث العلمي الأصيل، وهي الموضوعية والحيدة والنزاهة والأمانة، وذلك بانحرافهم عن الطريق السوي واتباعهم لأهوائهم المريضة.

ولقد بين الله تعالى ارتباط إثارة التشابه بما يعتمل في نفس المثير وفكره من نوازع

(٢٧٧) سورة آل عمران/٧.

(٢٧٨) الطبري، جامع البيان/٣/١٧٦.

واتجاهات وانعكاس ذلك عن فكرته في التشابه، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ (٢٧٩)، فلقد أمر الله بني إسرائيل بذبح بقرة، وذلك للفصل في قضية القتل الذي تنازعوا تهمته - على ما هو مفصل في كتب التفسير (٢٨٠) - ولقد كانت أي بقرة تجزى عنهم، لأنها كانت ستحقق الغرض الذي من أجله أمرهم الله بذبحها، ولكنهم ماطلوا وجادلوا وتشادوا، والسبب في ذلك أنهم كانوا لا يزالون محتفظين في عقولهم وأرواحهم برواسب وثنية فرعونية : فقد كان بنو إسرائيل - الذين بعث الله واحداً منهم برسالة وهو موسى عليه السلام - يعيشون في مصر آنذاك تحت حكم الفراعنة، وذلك منذ أن قدموا مع نبي الله يعقوب عليه السلام وآله إلى مصر التي كان يتبوأ رجل منهم - وقتذاك - منصباً سياسياً واقتصادياً فيها بالغ الأهمية وهو يوسف عليه السلام (٢٨١). وكان الفراعنة وثنيين، وقد تأثر بنو إسرائيل بهذه الوثنية تأثراً شديداً، ونسوا تعاليم أنبيائهم خاصة الذين عاشوا معهم في مصر مثل يعقوب ويوسف عليهما السلام، حتى لقد بلغ من شدة تأثرهم بهذه الوثنية أنهم تمسكوا بها في أعماقهم وبرزت بقوة في أفعالهم وسلوكياتهم أكثر من التوراة التي أتاهم بها موسى من عند الله، فقد رفضوها ولم يحاولوا أن يتقربوا منها بقلوبهم ولا بعقولهم، بل لم يقبلوها إلا بالقهر والقوة، وبعد أن رفع الله عليهم الجبل، وهددهم بإلقائه عليهم إن لم يأخذوا بها، فقبلوها مؤقتاً خوفاً من أن ينفذ الله تهديده، ثم تربصوا محينين فرصة للانفلات منها، وما إن حانت لهم حتى تولوا عنها معرضين (٢٨٢).

لقد كانوا ينظرون إلى موسى عليه السلام على أنه فرعون جديد قوي، وليس على أنه نبي الله ورسوله، فهم يعرفون أنه رُبِّي في قصر فرعون مذ كان رضيعاً (٢٨٣)، وأنه

(٢٧٩) سورة البقرة/٧٠.

(٢٨٠) انظر : الطبري، جامع البيان/١/٣٣٦ - ٣٦٣.

(٢٨١) كما هو واضح من الآيات ٩٣، ٩٩، ١٠٠ من سورة يوسف.

(٢٨٢) وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلم تتقون﴾ ثم تولى من بعد ذلك ﴿(سورة البقر/٦٣ - ٦٤)، ويقول عز وجل : ﴿ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ (سورة البقرة/٩٣).

(٢٨٣) انظر الآيتين ١٢، ١٣ من سورة القصص.

كان بمثابة الابن المتبنى للفرعون^(٢٨٤). وأنه يملك عصا سحرية كالتى تملكها الآلهة والفراعين^(٢٨٥)، ويصنع بها المعجزات الخارقة، فقد انقلبت حية ضخمة^(٢٨٦)، تبتلع في جوفها كل ما ألقاه سحرة فرعون من حبال وعصى^(٢٨٧)، كما أنه شق البحر بها^(٢٨٨)، فساروا وسط فرقية في طريق يابسة^(٢٨٩)، وفَجَّرَ بها من الصخر عيوناً من الماء، لكل سبط من أسباطهم الاثني عشر عيناً خاصة يشربون منها^(٢٩٠). وهكذا وجدوه قد تغلَّب على فرعون وسحرته بسحر أقوى من سحرهم.

وكانوا يعرفون أنه منهم (من بني إسرائيل) لذا استغاثه الذي من شيعته على الذي هو عدوُّ لها^(٢٩١)، وعهدوه يدافع عنهم بقوة ضد العدو المشترك، وذلك مذ بلغ أشده واستوى^(٢٩٢)، حتى لقد قتل مصرياً كان يتعارك مع أحد مشاغبيهم^(٢٩٣)، الذين حين استغاثه مرة أخرى وجد منه تجاوزاً^(٢٩٤)، وهكذا وجدوه يعرض نفسه لحكم الإعدام^(٢٩٥) دفاعاً عنهم. ولما عاد الى مصر ثانية بعد أن نبأه الله، وجدوا أن ما يخصهم من دعوته هو مطالبته فرعون بالسماح لهم بالخروج معه من مصر^(٢٩٦)، لذا كله نظروا

(٢٨٤) انظر الآية رقم ٩ من سورة القصص.

(٢٨٥) كانت الآلهة والفراعين في مصر آنذاك تصور ممسكة عصا بيدها.

(٢٨٦) سورة الشعراء/٣٢.

(٢٨٧) سورة الشعراء/٤٤ - ٤٥.

(٢٨٨) سورة الشعراء/٦٣.

(٢٨٩) سورة طه/٧٧.

(٢٩٠) سورة البقر/٦٠.

(٢٩١) سورة القصص/١٥، ١٨.

(٢٩٢) سورة القصص/١٤، ١٥.

(٢٩٣) سورة القصص/١٥.

(٢٩٤) سورة القصص/١٨، ١٩.

(٢٩٥) كان الفراعنة يحكمون على القاتل بالاعدام، انظر : د. عبد الرحيم صدقي محمد حسني، القانون الجنائي عند الفراعنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٣٠، ٣٦. وسيشار الى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : د. عبد الرحيم صدقي، القانون الجنائي عند الفراعنة.

(٢٩٦) سورة الشعراء/١٧.

اليه على أنه المنقذ لهم من ظلم آل فرعون ويطشهم، فخرجوا وراءه ليس عن إيمان به كنبى مُرسل من عند الله بالهداية، بل باعتباره فرعونهم القومي الجديد المخصوص لهم، والذي جعل لهم أهمية - بكونه حامل العصا الأقوى - بعدما كانوا خدماً عند الفراعنة وعبيداً لهم يسومونهم سوء العذاب، وهذا هو سرّ استلابهم كل ما استطاعوا سلبه من ذهب المصريين وحليهم عند خروجهم^(٢٩٧)، فقد كانوا يريدون أن يحققوا لأنفسهم شيئاً أعظم مما لدى المصريين حتى يفوقونهم فيه. إنَّ هناك فرقاً شاسعاً بين خروج اليهود من مصر وراء موسى، وهجرة المسلمين الأوائل الى الحبشة مرتين وإلى المدينة المنورة، فقد هاجر هؤلاء المؤمنين الأبرار ناجين بدينهم وعقيدتهم، تاركين وراءهم أولادهم وأزواجهم وآباءهم وأمهاتهم وأموالهم وبيوتهم، وهان كل ذلك عليهم من أجل الدين، أما بنو إسرائيل، فقد خرجوا من مصر وقد سرقوا ذهب غيرهم، لكي يصنعوا من هذا الذهب شيئاً أفخم مما يملكه المصريون، وكان هذا الشيء هو عجل الذهب.

فما أن استقر بهم المقام بعد غرق فرعون وجنوده، وفجّر لهم موسى عيون الشرب بعضاً من الحجر، وأنزل الله عليهم المن والسلوى، ووعدهم وعداً حسناً، وذهب موسى لمليقات ربه، فإذا بهم يصوغون ما سرقوه من الذهب على هيئة عجل وعكفوا عليه عابدين.^(٢٩٨)

لقد صنعوا عجلاً من ذهب ليكون أفخم من عجل (أبيس) الذي كان الفراعنة يعبدونه، وكان من أهم معبوداتهم، وكانوا يجعلون له كهنة مخصصين يقومون بخدمته وتنظيفه وإعداد فراشه، ويخرجونه يوم عيده ليُتبرَّك الناس به، وكانوا يحنطونه إذا مات، ويدفنونه في مقبرة هائلة (بسقارة) تعرف باسم (السرابيوم)^(٢٩٩). وقد وجدت برديات

(٢٩٧) قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾. سورة طه/٨٧.

(٢٩٨) قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى. سورة طه/٨٧-٨٨.

(٢٩٩) د. رؤوف شلبي، آله في الأسواق، دراسة في النحل والأهواء القديمة في الشرق، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، المنصورة، مصر ص ٢٥٥-٢٥٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: د. رؤوف شلبي، آله في الأسواق.

مكتوبة بمزيج من الديموطيقية والهيراظيقية فيها تفاصيل دقيقة عن طقوس تحنيط ودفن العجل أبيس. (٣٠٠)

فإذا كان الفراعنة يعبدون عجلًا ماديًا، فلا بد أن يتفوق عليهم بنو إسرائيل بأن يعبدوا عجلًا ذهبيًا! لقد خرجوا من مصر وأرواحهم مشبعة بالوثنية الطوطمية وعقولهم مقتنعة بأن العجل الذي صنعه بأيديهم من الذهب هو إله موسى الذي ضل عنه ونسيه.

كانت نفوسهم مملوءة بالشر، ولقد شغبوا على موسى كثيرًا، منذ أن كانوا يعبرون البحر، وظنوا أن موسى أهلكهم، وندموا على اتباعه، وطلبوا منه أن يطمئنهم على ذويهم، فشق لهم بعصاه كوى أو نوافذ من ظلل الماء ليرى بعضهم البعض. وملأوا المن والسلوى اللذين كان الله ينزلهما عليهم، وطلبوا أطعمة أردأ منها ألقتهم عليها أنفسهم.

واستفحل بينهم الشر حتى أقدم أحدهم على قتل قريبه الذي رفض أن يزوجه ابنته، فثارت ثائرتة، وأقسم ليقنتله، وليأخذن ماله، ولينكحن ابنته، وليضيعن دمه، فعذا عليه فقتله، وألقى جثته على باب قرية سبط آخر غير القرية التي يعيش فيها سبطه، وذلك حتى ينفي التهمة عنه، ويلصقها بالسبط الآخر وكانت هناك عداوة بين الأسباط الاثني عشر، حتى اتفقوا على أن يعيش كل سبط منهم في قرية مستقلة، لها سور خاص يحيط بها.

واستيقظ الناس ففتحوا أبواب قريتهم فألفوا جثة القتيل ملقاة أمامها، فاتهمهم أهل القتيل بقتله، وتصاعد الخلاف بينها واشتد، فتوجهوا جميعاً إلى موسى عليه السلام، وطلبوا منه أن يحكم في هذه القضية، وأن يعرف لهم من القاتل.

وناجى موسى ربه، فطلب منه الله أن يبلغ قومه بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة (٣٠١). كان الله سبحانه وتعالى يختبر إيمانهم، وكان يريد منهم بذبح البقرة أن

(٣٠٠) د. فيليب فاندنبرغ، لعنة الفراعنة، التفسير العلمي لظاهرة لعنة الفراعنة الغامضة، نقله إلى العربية: خالد أسعد عبس، وأحمد غسان سبانو، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ص ١٥٩-١٦٠. ويشير إلى هذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا: د. فيليب فاندنبرغ، لعنة الفراعنة.

(٣٠١) نظر تفاصيل هذه القصة في: الطبري، جامعة البيان ١/ ٣٣٦-٣٦٣.

يذبحوا الأفكار الوثنية من عقولهم وقلوبهم، أن يذبحوا عجل أبيس في خيالهم ومعتقداتهم، فإذا ما تحصلوا نهائياً من الشرك والوثنية، فإن الله سوف ينعم عليهم بنور الهداية والإيمان، فيعيشون في سلام وأمان، وتموت روح الشر فيهم، وتنعدم الجرائم، وتفتح بصيرتهم على الحق والعدل، فيتوصلون بأنفسهم الى حل مشكلاتهم، ولا يعتمدون في ذلك على سؤال نبيهم الذي كانوا ينظرون إليه على أنه ساحر يحقق المعجزات بعصاه السحرية. إذن فإن أي بقرة تجزى عنهم، ولكنهم - كعادتهم - ماطلوا وجادلوا وتشادوا، والسبب في ذلك هو أنهم وقعوا في التشابه، فقد اعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى يريد منهم ذبح بقرة معينة، وفكرة البقرة المعينة فكرة وثنية، فقد كان الفراعنة حين يعبدون حيواناً لا يعبدون كل جنس هذا الحيوان، بل يعبدون أحد أفرادهم فقط وذلك في حالة ما إذا توافرت فيه علامات وسمات معينة^(٣٠٢)، ولقد كانوا يشترطون - مثلاً - في العجل المعبود أن يكون أسود الجلد، فيه نقط بيضاء وفي جبهته شامة بيضاء أيضاً، مثله الشكل^(٣٠٣). فقد كانوا لا يقدسون كل جنس العجول بل عجلًا واحدًا فقط تتوافر فيه العلامات الخاصة. أما بقية العجول فكانوا يستخدمونها في أعمالهم ويذبحونها ويأكلونها. وكذلك كانوا يعبدون البقرة، ويعتقدون أنها آلهة السماء، ولكنهم لم يعبدونها لكونها بقرة بل لأنهم اعتقدوا أنها ترمز - بنفعها ووداعتها - إلى حنو السماء وأمومتها^(٣٠٤)، ولذا عبدوها تحت اسم «حتحور»، وليس باسمها الحيواني «إحة»، وكانوا يصورونها أحياناً في صورة امرأة وسيمة لها أذنا بقرية وقرناها^(٣٠٥) وفي بعض الصور كانوا يرسمون قرص الشمس الغاربة بين قرنيها^(٣٠٦).

من هنا وقع بنو إسرائيل في التشابه، فحين أبلغهم نبيهم موسى عليه السلام أمر ربهم إياهم بذبح بقرة، ظنوا أنه يتخذهم هزواً، لأن البقرة التي أمروا من لدن الله

(٣٠٢) د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٨٤م. الجزء الأول ص ٣٣٠. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم.

(٣٠٣) د. رؤوف شليبي، آلهة في الأسواق ص ٢٥٥.

(٣٠٤) د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٣٢٩/١.

(٣٠٥) د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ٣٣١/١.

(٣٠٦) د. فيليب فاندنبرغ، لعنة الفراعنة ص ١٨٤.

بذبحها، لا بد أن تكون بقرة خاصة مختلفة عن سائر البقر، وذلك لأنها اختيار الله، ولأن من الضروري أن تكون لها أهمية معينة في مسألة القتل، ورغم أن هذه الأهمية غامضة، ودور البقرة في كشف قاتل وعلاقتها بجريمة القتل أمر مبهم، إلا أن هذا الغموض والإبهام الذي يحيط بها، أضفى عليها عندهم جو البقرة المعبودة عند الفراعنة. إذن هذه البقرة مقدسة، فكيف يؤمرون بذبحها؟ وإذا كانت هي إله موسى الذي مثله بالعجل الذهبي من قبل، فهل يذبحون إلهاً، ولكن موسى عليه السلام استعاذ بالله سبحانه وتعالى من أن يكون من الجاهلين، أي أنه استعاذ بالله من جاهلية الوثنية التي كانت قلوبهم لا تزال معلقة بها، ولكنهم لم يصدقوه، ولم يستطيعوا أن يقتلوا فكرة الوثنية من نفوسهم، فسألوا عن علامات خاصة يعينوا بها هذه البقرة المقدسة، إذ لا بد أن تكون لها علامات مميزة تكون بها جديرة بأن يقع عليها اختيار الله، وذلك طبقاً للصورة الوثنية للبقرة التي انحضرت في أخيلتهم وعقولهم.

هذا هو سبب مشاداتهم لنبيهم موسى عليه السلام، مذ أبلغهم بأمر الله إياهم بذبح بقرة، ولما عرفهم بأنها وسط في العمر وأن لونها أصفر فاقع، لم يجدوا في ذلك علامات خاصة نادرة، فالبقر متوسط العمر وأصفر اللون كثير، بينما تعيش في خيالهم بقرة مواصفات قلما توجد، لذلك تشابه البقر عليهم، فهو متماثل أمامهم في العمر واللون، لكن البقرة المطلوبة لها في خيالهم مواصفات خاصة، كما أنهم - في الحقيقة - يرفضون في أعماقهم ذبح البقرة، نظراً لقدسيتهما عندهم، تلك القدسية التي زادت بعدما ضرب القتل ببعضها فعادت إليه الحياة، وأخبر عن شخص قاتله^(٣٠٧). لذا كفروا بهذه المعجزة^(٣٠٨).

إن التشابه يعرض للبر والفاجر، فقد وقع أهل الجنة - كما مر بنا - وصدقهم الله في الدعوى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتُوا بِهِ مِثْلَهَا﴾^(٣٠٩)، كما وقع فيه المرجفون في صلب عيسى عليه السلام وقتله، وبنو إسرائيل في البقرة، ولكن هنا خيط رقيق جداً يفصل بين الوقوع في التشابه وإثارة التشابه، فإن من يقع في التشابه سرعان ما يثوب إلى

(٣٠٧) راجع الآية رقم ٧٣ من سورة البقرة.

(٣٠٨) راجع الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة.

(٣٠٩) سورة البقرة/٢٥.

الحقيقة اذا ما تكشف له وجهها، أما من يثير التشابه فهو يعرف الحقيقة ولكنه يعميها ويلبسها بالباطل، ولقد كشف الله نيته وهتك ستره، وذلك في قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾^(٣١٠)، فهم يعلمون الحق ولكنهم يكتُمونه ويلبسونه بالباطل، هم إذن يثيرون التشابه في القرآن الكريم متعمدين، ويفتعلونه ويتولّون كبره، وهدفهم من ذلك هو إشعال نار الفتنة، والدّس على الإسلام وأهله، والكيد لهم، مستترين وراء ستار التأويل، يدفعهم إلى ذلك ما استقر في قلوبهم من مرض الزيف والميل عن الحق والشك، قال تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾^(٣١١).

إن الغرض الخبيث الذي يسعى إليه أعداء الاسلام من وراء إثارة التشابه وافتعاله في القرآن الكريم هو هدم العقيدة الراسخة بالوهمية المصدر القرآني. لذا فإن دفع التشابه عن القرآن دفاع عن هذه العقيدة الراسخة، وعن سلامة معاني القرآن الكريم وألفاظه، وأفكاره وتعبيراته، ومحتواه وصياغته من شبهة الوضع البشري والاختلاق، والتعارض والاضطراب.

وذلك لأن ادعاء المغرضين والمشككين من أعداء الاسلام وجود تعارض بين نصوص القرآن الكريم لا يؤدي إلا إلى مقولة أنه لا بد أن يكون صادراً عن مصدر مضطرب، وبالطبع لا يمكن أن يكون صادراً عن الله لأن الله لا يمكن أن يضطرب في كلامه أو يتناقض - تعالى سبحانه عن ذلك علواً شديداً - ومن ثمّ تسلّم هذه المقولة إلى مقولة أخرى، فما دامت هذه النصوص المتعارضة ليست من عند الله، فلا بد أن تكون قد صدرت عن مصدر بشري، وهو الرسول (ﷺ) الذي أبلغ الناس بهذه النصوص - وحاشا له ذلك - ﴿إنّ هو إلا وحي يوحى * علّمه شديد القوى﴾^(٣١٢).

إنّ محاولة مثيري التشابه نفى المصدر الإلهي للقرآن الكريم تؤدي الى نتائج خطيرة تهدد الدين من أساسه، لأنهم يريدون الزعم بأن الرسول (ﷺ) اخترع القرآن من عند نفسه، واستمد أفكاره وعناصره من كتب اليهود والنصارى التي كانت موجودة في عصره، ثم لم يصدق على الناس حين نسبها إلى وحي السماء، وحيث أنه لم يكن

(٣١٠) سورة البقرة/٤٢.

(٣١١) سورة آل عمران/٧.

(٣١٢) سورة النجم/٤-٥.

صادقاً في زعمه بأن هذا الكتاب أوحاه الله إليه، فإن عدم صدقه يمس أخلاقه، وما دامت أخلاقه قد مسّت، فلا يمكن إذن تصديقه ولا الإيمان به ولا اتباعه، ويكون من اتبعه مخدوعاً، ويكون ما جاء به من دين مجرد نحلة وضعية، وفكر أرضي، وليس ديناً سماوياً من عند الله، بل محض اختلاق ابتدعت محيلته بعضه، واستلبت بعضه من مصادر كتابية، ولعجزه لم يستطع أن يؤلف بينها، فجاء عمله متناقضاً متعارضاً. بل إن هذا التعارض بين نصوص الكتاب يجعل احتمال الاضافة اليه والحذف منه بواسطة البعض احتمالاً وارداً.

وهكذا فإن إثارة التشابه مشكلة خطيرة تؤدي الى الشك في المصدر الإلهي للقرآن، والشك في صدق الوحي وصدق نبوة رسالة نبينا محمد (ﷺ) وسمو أخلاقه التي أثنى عليها الله تعالى ومدحها في قوله الكريم : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣١٣)، وهذا كله طعن في أسس الاسلام، لذا يجب على علماء المسلمين التيقظ والانتباه لما يمكن أن يثيره أعداء الاسلام ومن تشابه في القرآن، فإن التشابه سراب خداع، وخيال واهم، وليس من الحقيقة في شيء، ولكنهم يثيرونه ابتغاء الفتنة - كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ (٣١٤).

والواجب علينا - معشر المسلمين - أن نؤمن بالمحكم ونعمل به، وأن نؤمن بالتشابه أيضاً وأنه من عند الله تعالى، ولا نخوض فيه بغير علم، فقد جعل الله هذا الخوض من أسباب عذاب السعير، قال تعالى : ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمَجْرُمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعَمُ الْمُسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٣١٥) ولقد سمع رسول الله (ﷺ) قوماً يتدارأون القرآن، فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلموه إلى عالمه» (٣١٦). وعلى هذا فإن المفوض إليهم البحث في

(٣١٣) سورة القلم/٤).

(٣١٤) سورة آل عمران/٧.

(٣١٥) سورة المدثر/٣٩ - ٤٥.

(٣١٦) الإمام أحمد، مسنده ١٨٥/٢.

المتشابه هم الراسخون في العلم، وعلينا الإعراض عن يخوضون في آيات الله بغير علم، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيكُ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١٧)، وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ إِنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنْ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (٣١٨)، فوصف الله سبحانه القاعد مع الخائضين بالنفاق، وهدد المنافقين والكفار بعذاب النار. وقال رسول الله (ﷺ) : «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ» (٣١٩).
وابتاعاً لهذه التوجيهات الكريمة سار الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح. وجاءت أقوالهم ونصائحهم على هداها، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - : «إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ نَاسٌ يَجَادِلُونَكُمْ بِشَبَهَاتِ الْقُرْآنِ، فَخُذُوهُمْ بِالسِّنَنِ، فَإِنْ أَصْحَابُ السِّنَنِ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ» (٣٢٠)، وقال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : «يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رِجْلَانِ : فَرَجُلٌ لَهُ فِيهِ هَوَى وَنِيَّةٌ، يَفْلِيهِ فُلِّي الرَّأْسِ، يَلْتَمِسُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ أَمْرًا يُخْرِجُ بِهِ عَلَى النَّاسِ، أُولَئِكَ شَرَارُ أُمَّتِهِمْ، أُولَئِكَ يَعْمَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْهُدَى. وَرَجُلٌ يَقْرَأُ لَيْسَ لَهُ فِيهِ هَوَى وَلَا نِيَّةٌ، يَفْلِيهِ فُلِّي الرَّأْسِ، فَمَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهُ عَمَلٌ بِهِ، وَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وَكُلَّهُ إِلَى اللَّهِ، لِيَتَفَقَّهَنَّ أُولَئِكَ فَقْهًا مَا فَقَّهَهُ قَوْمٌ قَطُّ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ مَكَثَ عَشْرِينَ سَنَةً، فَلْيَبْعَثَنَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ يَبِينُ لَهُ الْآيَةَ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ، أَوْ يَفْهَمَهُ إِيَاهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ» (٣٢١). وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «إِنَّ الْقُرْآنَ ذُو شَجُونٍ وَفَنُونٍ، وَظُهُورٍ وَبُطُونٍ، لَا تَنْقُضِي عَجَائِبَهُ، وَلَا تَبْلُغُ غَايَتَهُ، فَمَنْ أَوَّغَلَ فِيهِ بَرْقَ نَجَا، وَمَنْ أَوَّغَلَ فِيهِ بَعْفَ غَوَى. أَخْبَارٌ وَأُمُثَارٌ، وَحَرَامٌ وَحَلَالٌ، وَنَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ، وَمُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ، وَظَهْرٌ وَبُطْنٌ، فَظَهَرَهُ التَّلَاوَةُ، وَبُطْنَهُ التَّأْوِيلُ، فَجَالَسُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَجَانِبُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَإِيَّاكُمْ وَزَلَّةُ الْعَالَمِ» (٣٢٢).

(٣١٧) سورة الأنعام/٦٨.

(٣١٨) سورة النساء/١٤٠.

(٣١٩) البخاري، صحيحه ١٥٠/٧ - ١٥١، رقم الحديث ٣٩٤٩.

(٣٢٠) السيوطي، الدار المنثور ٨/٢.

(٣٢١) الإمام محمد عبده، تفسير المنار ١٧٨/٣.

(٣٢٢) السيوطي، الدار المنثور ٦/٢.